محمد العروسي المطوي

من طرائف التاريخ

بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع

محمد العروسي المطوي

من طرائف التاريخ

دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع
تونس 1980

دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع
تونس

هذه الصفحات

قد تختلف العودة إلى المصادر التاريخية حسب اختلاف المقاصد ، والمناهج وحتى الأمزجة ؛ كما أن تلك العودة قد تكون إجبارًا خارج الذات بسبب دراسة أو تدريس ، أو تكون حاجة كامنة في الذات بحثا عن الاستفادة أو الاتعاظ أو حتى تزجية الفراغ .

وتختلف تلك المصادر ذاتها بالنسبة لواضعيها من جهة الأهداف والمناهج والأساليب والأمزجة . وإذا كان الجانب الرّسمي قد يطغى في « التأريخ » للأحداث ، فان الجانب غير الرسمي ـ جانب المجتمع وعامة الشعب ـ قد يبقى بعيدا عن ملاحظات المسجلين للأحداث التي تحوط بهذا الملك او ذاك الأمير ، أو بهذا الخليفة او ذاك السلطان ، أي تبقى تلك الجوانب الأخرى مهملة ، أو تمسها لمحات طفيفة لا تشفي غليلا ، ولا تسد رمقا . ولكنها ـ رغم ذلك ـ قد تفتح كوّة يمكن

بها التطلّع الى ما هو أبعد منها ، أو تكون ومضة تنير غموضا لحدث تاريخي قد يصغر وقد يعظم .

ولم تكن هذه الصفحات بعيدةً عن هذا الملحظ فهي أقرب الى الجانب غير الرسمي من الأحداث التي تتصل بأولائك المسؤولين بالرغم من ورودهم في الذكر وحتى صلتهم بالحدث . وفي بعض هذه الصفحات ما يلقي الضوء على واقع قد لا يعيره « التأريخ الرسمي » اهتماما وقد يهمله لأنه يمس بعرض المسؤول او سيرته ، او يشدد على تبعة ما كان مسؤولا عنه .

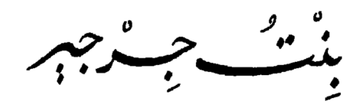
ولعل النسج على منوال هذه المحاولة يساعد على توفير جوانب من « تأريخ » لا يتصل بمحور الحاكم بقدر ما ينال أوضاع المحكومين . وتلك حاجة مفتقر إليها كثيرا نظرًا لغياب الكثير من مصادر التوثيق أو انعدامها . وهذا ما نلمسه في أغلب عصور هذا الوطن اذ تظافر على ذلك عاملان واضحان على الأقل : عامل قلّة المدوّنات ، وعامل الكوارث والجوائح التي انتابت هذا الوطن فأتت على أغلب تراثه الثقافي .

وجانب آخر يمكن التوجه اليه لدراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية خارج المسار الرسمي للتأريخ ويتمثل ذلك خاصة في مؤلفات المناقب والفتاوى وبعض الشروح للمؤلفات

« العلمية » الكلاسيكية . وقد بدأت هممبعض الدارسين تتجه الى هذا الجانب رغم ما فيه من مشقة البحث والتنقيب . ومن هذا وذاك يمكن تدارك نقص حاصل ، وسدّ ثلمة ، ورتق فتق حسب الامكان . ولم تكن هذه الصفحات الا فاتحة عمل طويل أرجو أن تتظافر الجهود عليه حتّى تؤدّى مهمةٌ تراثُنا وماضينا في أشد الحاجة إليها .

وكان منهج هذه الصفحات أقرب الى بساطة العرض ، ووضوح التحليل والاستنتاج حتى يكون أقرب الى عامة القراء والمطالعين . والله الموفق .

محمد العروسي المطوي
محرم 1401
نوفمبر/ديسمبر 1980



بِنتُ جِرْجير

إن أيَّ مذهب أو أيّ دين لا يُكْتَبُ له الفوز والبقاء إلاّ متى كان معتنقوه اعتنقوه عن إيمان وحماس ، ومثّلوا مبادئه وجسَّموها في مسلك أخلاقي بعيد عن ضيق « الأنا » وحبٍّ الذات حتى لا ينحرف الاتجاه فينزلق عن المقصد الأسمى ، والغاية النبيلة ، ويفقد أهم خصائص مبادئه ومثله العليا التي انبنى عليها .

ومتى توفرت في أنصار المذهب أو الدين تلك الصفات الايجابية فان الانتصار يكون حليفَهم لا محالة مهما كان العددُ الذي هم عليه ، ومهما كان المحيط الذي هم فيه . ذلك أنَّ كثرة العدد مع فَقْدِ الايمان وانعدام الحماس لا توفّر الفوزَ على عكس القلة مع وفرة الايمان والحماس . ولنا في بداية الدعوة الاسلامية المَثَلُ والعبرة ؛ فقد تغلّب المسلمون ـ وهم قلّةٌ ـ في غزوة بدر ، وانهزموا ـ وهم كثرةٌ ـ في غزوة حنين ؛ لأنهم في الأولى لم يشغلهم شيءٌ عن حماسهم وإيمانهم ، ولم يُلْهِهِم حبُّ المتاع عن تقييم

العدوّ فانتصروا وفازوا ، بينما غرّتهم كثرتُهم في الثانية وصرفهم حبُّ المتاع عن المبدأ فانهزموا . ولولا السكينة التي نزلت على الرسول وَصَحْبِهِ المؤمنين حقّا فغيرّت مجرى المعركة لكانت الهزيمة التي لا يُدْرَى مداها ولا نتائجها على الدين الذي جاء لانقاذ البشر وإسعادِهم .

وعلى هَدْيٍ من ذلك الايمان والحماس أخذ الاسلام يتجاوز نطاق جزيرة العرب ناشرا لواء العدل والحق في كل أرض دخلها . وفي السنة السابعة والعشرين من الهجرة كان وصولُ أوّلِ جيش عربي مسلم الى افريقية . وكان « الأفارقة » ـ آنذاك ـ يعانون من احتلال طال به الأَمَدُ فأضحوا يتطلَّعُون الى من يُنْقِذُهم مِمّا هم فيه . ويقينًا أنهم سمعوا بهذا الدِّين الجديد الذي ظهر الى الناس ، وبدأ يزحزح الروم البيزنطيين من السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط مثلما أزال نفوذهم عن بلاد الشام ومصر .

وكانت إفريقية في وضع سياسي لا يدعو الى الاستقرار ولا يبشر بالبقاء ؛ فقد أخذت السيطرة البيزنطية تفقد هيبتها وقوتها . وكانت ـ منذ أن استولت على إفريقية ـ لم تحسن السلوك ، ولم تُقِمْ العدل مع « الأفارقة » ، وأثقلت كاهلَهم بالضرائب المشروعة وغير المشروعة . وتفشّت الرشوة بين الموظفين على

اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم . ووصل الطموح بجرجير (والي افريقية البيزنطي) أن يعلن استقلاله عن بيزنطة متخـذا من مدينة سبيطلة عاصمة له .

وجاء أوّلُ جيشٍ إسلامي لينقذ الأفارقة بقيادة عبد الله إبن أبي سرح فكان من الطبيعي أن يكون لقاءٌ حربيٌّ لهذا الجيش مع جرجير وقواته . وكان اللقاء حول مدينة سبيطلة نفسها . ولم يكن صعبا على جيش عبد الله بن أبي سرح أن ينتصر ما دامت عناصره تتحلّى بقوة الايمان وشدة الحماس .

تذكر الرواية العربية ـ في بعض المصادر ـ أنّ البطريق جرجير حاول أن يبعث الحماس في جنوده وقواده فأخرج ابنته وألبسها أزهى الثياب وأبهى الحُلَلِ . وأحاطها بالعديد من الوصائف ـ وتقول الرواية : إنهن أربعون خادمة ـ وأبرزها على منصّة عالية وقال لجنوده :

ـ أتدرون من هذه .

فقالوا له :

ـ نعم إنها بنت الملك جرجير . وهؤلاء خدمها .

فقال لهم جرجير :

ـ وحقٌ المسيح والنصرانية لا يقتل عبدَ الله بن أبـي سرح منكم رجلٌ إلا زوجتُه ابنتي وسقت له ما معها من الحليْ والخدم .

وأنزلته المنزلة التي لا يطمَعُ فيها أحد عندي . .

وبلغ خبر الجائزة عبدَ الله بن أبي سرح فقابل هذا السلاح بمثله فأعلن في جنده قائلا :

ـ وحقٍ محمد رسول الله ، لا يقتل أحدٌ منكم جرجيرَ إلاّ نفلتُه ابنته وما معها .

ثم التحم القتال بين الفريقين . وكان في الجيش العربي أحد الشبان ـ لعلّه أصغر الجنود سنّا ـ هو عبد الله بن الزبير . ويذكر الرواة أنَّ لهذا الفتى البطل دورًا كبيرًا في مصير المعركة . وتذكر الرواية أنَّ ابن الزبير وصف المعركة بهذا المعنى :'

« ... هجم علينا جرجير في معسكرنا في مائة وعشرين ألفًا ، ونحن في عشرين ألفا فأحاطوا بنا من كل مكان . وأُسْقِطَ في أيدي المسلمين . وتوافد قُوَّادُ الجيش العربي على عبد الله ابن أبي سرح في خيمته يتداولون معه الرَّأيَ لفكّ الحصار المنصوب عليهم . ولم يكن عبد الله بن الزبير مع هؤلاء المجتمعين في خيمة ابن أبي سرح . إنه كان في الميدان يراقب جيش العدو في تحركاته ، وتسديد ضرباته . وحانت الفرصة لهذا الفتى ... لقد شاهد جرجير خلف عساكره على برذون أشْهَبَ ومعه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس ، وبينه وبين جنده أرضٌ فضاءٌ ليس فيها أحد .

وعاد ابن الزبير مسرعا ليخبر قائد الجيش العربي بهذه الغِرَّةِ التي رآها ، والتي يمكن أن تغيّر سير المعركة . ولكنّ الفتى (ابن الزبير) لم يسمح له الحُجَّاب بالدخول حيث كان عبد اللهابن أبي سرح يفكر في مصير المعركة . وحام ابن الزبير حول الخيمة حتى وجد كسرا فيها دخل منه على ابن أبي سرح فوجده مستلقيا على ظهره ، فاستوى هذا الأخير جالسا وقال لابن الزبير :

ـ ما أدخلك عليّ يا ابن الزبير ؟ !

أجاب ابن الزبير :

ـ اني رأيت غِرَّةً من العدو فَاخْرُجْ فانْدُبْ لي الناس .

قال ابن أبي سرح :

ـ وما رأيت .

وعندما عرف القائد ابن أبي سرح ما شاهد ابن الزبير خرج مسرعا من خيمته وصاح في الجند :

« ... انتدبوا مع ابن الزبير ... »

فاختار ابن الزبير ثلاثين فارسا . وقال لبقية الناس :

« ... اثبتوا في مصافكم ... » .

وسار الى حيث رأى جرجير وقال لأصحابه :

« احموا ظهري ... »

واندفع ابن الزبير . واخترق الصف حتى اقترب من جرجير ودنا منه . وكان جرجير قد ظن أنَّ ابن الزبير جاءه رسولاً من الجيش المقابل له . ولكن ابن الزبير بادره بسيفه وحزّ رأسه . وصاح مكبّرا بأعلى صوته ، فسمع الجيش العربي صيحتَه فحملوا حملة واحدة حتى اكتسبوا النصر . ويذكر الرواة أنَّ بنت جرجير كانت من نصيب عبد الله بن الزبير ، وأنه كان يرتجز لها شعرا .

وعندما تمَّ النصر في معركة سبيطلة وأراد القائد ابن أبي سرح إرسالَ مَنْ يبشر الخليفةَ عثمان بنَ عفَّان بالنصر التفت الى ابن الزبير وقال له :

ـ أنت أولى مَنْ هنا بتبليغ بشارة النصر الى أمير المؤمنين .

وانطلق ابن الزبير نحو الحجاز فبلغه بعد عدة أسابيع . وأعلم الخليفة عثمان بما فتح الله به عليهم ، فابتهج عثمان ودعا الناس الى المسجد . وطلب من ابن الزبير أن يقوم فيهم خطيبا ، ويعلمهم بالفتح . وتهيّب الشاب البطل من الموقف فطلب من الخليفة إعفاءه . ولكنَّ الخليفة عثمان أصرّ على ذلك . وقدمه الى الناس بقوله :

« ... أيها الناس . إنَّ الله تعالى فتح عليكم إفريقية . وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ... » .

وكان الزبير بن العوام (والد عبد الله) علم بما اقترحه عثمان

على ابنه فأقبل مسرعا الى المسجد . وقال :

« ... غفر الله لأمير المؤمنين . عرض هذا الغلام لهذا المقام بين أظهر الناس وهو حديث السن ... » .

فلما دخل المسجد رأى ابنَه قائما يخطب في آخر الناس فكان يدعو له بالسداد والثبات . ولم يزل عبد الله بن الزبير موفّقا في خطبته حتى انتهى منها . وأُعْجِبَ الناس لحداثة سنّه وفصاحة بيانه . وأقبلوا على أبيه يهنئونه بذلك . فقال الزبير بن العوام :

« بأبي وأمي . لقد سمعت من كلامه فوّهات (1) جده أبي بكر الصديق رضي الله عنه * .

---

1) كناية عن الفصاحة يقال « منطبق مفوّه » .

* راجع رياض النفوس (1 : 27 ـ 28) ـ فتوح افريقية لابن عبد الحكم (246 ـ 248).ـ فتوح البلدان للبلاذري من صفحة 317 .

كُدْيَةُ الجُلُود

لم يكن ما يعبّر عنه بعهد الولاة في إفريقية يمثل الناحية العسكرية وتوطيد أركان الدولة الاسلامية فقط ، بل كان الى جانب ذلك يمثل خطوات التعريب الأولى في هذه الربوع .

ولم يكن الولاة الذين جاؤوا في ذلك العهد يمثلون البراعة العسكرية فقط بل كان شأنهم في ذلك شأن الكثير من القواد العرب يحملون الى جانب براعة استعمال السيف براعة استعمال اللسان كذلك أعني قوة الفصاحة وجودة التعبير .

ومن أشهر أولائك القواد الذين جمعوا بين قوة الساعد ونصاعة البيان « يزيد بن حاتم » المهلّبي . ومعروف أن قوة الساعد ونصاعة البيان من سمات الفروسية العربية . وكانت هاتان الركيزتان تستلزمان قوة أخرى هي سمة الكرم والجود . وقد كان يزيد بن حاتم في غاية الجود (1) وهو قائل البيتين الشهيرين :

---

1) الجزء المطبوع من كتاب الرقيق (149).

ما يألف الدرهمُ المضروبُ صرتَّنا

إلا لماما ثم ينطلق

يمرّ مرًّا عليها ، ثم يلفظها

إني امرؤٌ لم تحالف خرقتي الوَرِقُ (2)

ويقول عنه الكاتب الرقيق القيرواني :

« ... حاله في جوده ، وشجاعته ، وبعد صيته ، ونفاذ أمره وتقدمه ، وعلم الخاصة والعامة به يغني عن كثير من شرح أمره . وقدم الى إفريقية (3) فأزال الفساد منها وأصلحها . ورتب القيروان في أسواقها ، وجعل كلَّ صناعة في مكانها ، وجدّد بناء المسجد الجامع حتى لو قيل مصرَّها لم يبعد من الحق ... » . (4)

ولم يُرْسَلْ يزيد بن حاتم اعتباطا إلى افريقية ، ولم تكن صلته القوية بأبي جعفر المنصور كافيةً وحدَها لاختياره حتى يشغل ولاية افريقية ، وإنما كان الاختيار نتيجةَ الخبرة والمراس ؛ فقد تولىّ مقاليد ولايات كثيرة قبل ولايته على إفريقية ، من ذلك : أرمينية ، والسند ، واذريبجان ، ومصر .

---

2) المصدر السابق .

3) تولى على افريقية سنة 155 هجرية .

4) الرقيق (149)

ولما كان أبو جعفر المنصور عالما بالمغرب ، خائفا عليه ، كان لا يبعث اليه إلاّ أهل ثقته من ذوي الرأي الأصيل والخطر الجليل « ... ومما يدل على مكانة يزيد بن حاتم عند أبي جعفر المنصور أنه عندما ولاّه على المغرب انتهى في تشييعه الى فلسطين حتى حسده أقوام على ذلك منهم شبيب بن شبيبة .... » (5) وقد بلغ الحسد بابن شبيبة أن بعث برسالة إلى أبي جعفر المنصور يحذره فيها من تولية يزيد بن حاتم على افريقية . وأنه ربما خالف وانتقض عليه ، وشق عصا الطاعة في وجهه . وكان أبو جعفر المنصور على يقين من إخلاص يزيد بن حاتم وولائه . ولهذا عِوَضَ أن يُخفِيَ الرسالة عنه أعطاها له حتى يعلم ما يظنه بعض الناس فيه . واستلم يزيد الرسالة وأخفاها عنده . ثم انصرف إلى افريقية .

وشاءت الصدف أن يبعث أبو جعفر المنصور بشبيب بن شبيبة في مهمة الى افريقية حيث كان يزيد بن حاتم واليا عليها . واقتبل الوالي غريمَه مبعوثَ الخليفة العباسي بالاكرام والبر أكثر مما كان يتوقع ويؤمل دون أن يظهر عليه أي غضب أو جفوة . وعندما انتهت مأمورية شبيب بن شبيبة وأراد العودة الى بغداد أخرج إليه يزيد بن حاتم رسالة الوشاية فأُسقِطَ في يده وخاف

---

5) المصدر السابق .

من الانتقام وردّ الفعل . ولكنّ رجولة يزيد بن حاتم جعلته يقول لغريمه :

« ... لولا انك تستغفلني ما عرفتك هذا ... » ثم أمر برسالة الوشاية فمزقت أمام صاحبها حتى يطمئن ويعلم أن المهلّبي طوى تلك الصفحة ، وأنه جازاه على سوء فعله بما قدمه له من بر وإكرام وحسن وفادة (6) .

والملاحظ أن أبا جعفر المنصور هو الذي ربط خيوط العداوة بين ابن شبيبة وابن حاتم عندما سلّم لهذا الأخير رسالةَ الوشاية التي كتبها الأول . ولهذا هنالك سؤال وارد مطروح هو : لماذا -إذن- أرسل المنصور بابن شبيبة الى افريقية في مهمة لدى يزيد بن حاتم ؟ هل كان يريد التخلّص من ابن شبيبة فبعثه الى خصمه في افريقية حتى ينتقم منه ، أم أنه كان يريد اختبار عامله على إفريقية ومقدار شهامته ونبله ، وعفوه وصفحه ؟ مهما يكن من أمر فقد أثبت الحدث أن يزيد بن حاتم كان على مستوى عال من الشهامة ، وأنه عفا عن خصمه وهو في مُكْنَةٍ منه مما زاد من جلاله واعتباره أكثر مما لو ثأر لنفسه من خصمه .

وإذا كانت سيرة ابن حاتم المهلّبي مع خصومه على ذلك المنوال من السموّ فلا غرو أن تكون سيرته مع عامة الناس أدعى الى

---

6) المصدر السابق (152) .

الرضى والاطمئنان ، فقد أُثِـرَ عنه الكرم الجامع ، والعدل الشامل . وكان على مقام رفيع من حسن السياسة واعتبار القيم .... أتاه يوما بعض وكلائه يعلمه بأن الفول الذي زرعوه في فحص القيروان أعطى فيه التجار كذا وكذا . وذكر مالا جليلا ، فسكت عنه يزيد . ثم أمر خدّامه وقهرمانه وطباخه بالذهاب الى حيث زَرْعُ الفول ، وأمرهم أن يضربوا حوله مضارب وخياما كثيرة . ثم خرج يزيد بن حاتم مع أصحابه الى فحص القيروان فتنزه فيه وأطعم الطعام . وعندما أراد الانصراف دعا ذلك الوكيل وقال له : يا ابن اللخناء أردتَ أن أعيّرَ بالبصرة فيقال : يزيد بن المهلّب باقلاّني .. أمثلي يبيع الفول ... لا أمَّ لك . ثم أمر بإباحة مزرعة الفول فَخَرَجَ إليها أهل القيروان ما بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على الفول كلّه (7) .

وكان موقف يزيد بن المهلب من العلماء موقف التقدير الإكبار، حتى لو وقع بينه وبين أحدهم ما يوجب خلافا أو اتخاذ موقف .

من ذلك أن عبد الرحمان بن زياد لما اعتزل القضاء بسبب تدخّل ابن المهلّب في بعض الشؤون لم يحمل ابن المهلّب شيئا في نفسه فكان يستضيفه ، ويكرمه في منزله .

وقد روى أن سبب وفاة عبد الرحمان بن زياد أنه أكل عند

---

7) الرقيق (157 ـ 158) .

يزيد بن حاتم سمكا وشرب لبنا ، وانصرف الى منزلـه فمات ليلته . وفي الغد وقف ابن المهلّب خارجا من باب نافع ينتظر الجنازة فلما أقبلت ونظر الى جماعة الناس وكثرتهم وازدحامهم تمثل بقول الشاعر :

يا كعبُ ! ما راح من قوم ولا ابتكروا

إلاّ وللمـوت في آثارهـم حـادي (8)

ونظر يزيد بن حاتم يوما الى غنم كثيرة فقـال : لمن هذه الغنم ؟ فقيل له : إنها لابنك إسحاق . فدعا بابنه وقال له :

ـ ألك هذه الغنم ؟

قال إسحاق :

ـ نعم .

فقال له :

ـ لِمَ أردتّها .

فقال :

ـ آكل من خرافها ، واشرب من ألبانها ، وأنتفع بأصوافها .

فقال يزيد :

ـ فاذا كنت تفعل هذا ، فما بينك وبين الغنامـين والجـزّارين فرق .

---

8) الرقيق (168) .

وأمر بالغنم أن تذبح وتباح للناس ، فانتهبوها وذبحوها ، وأكلوا لحمها ، وجعلوا جلودها على كدية (يقول الرقيق القيرواني) فهي تعرف من ذلك الوقت بكدية الجلود (9) .

9) ص : 159 .

أَصْلِحْ النَّعْلَ يَا مُبَارَك

كانت القيروان ـ في أوج عز الدولة الأغلبية ـ تعج بالعلماء الفقهاء والصلحاء مما لا يوصف بالمبالغة إذا قيل : إن القيروان ـ اذ ذاك ـ كانت تمثل عصر ازدهار علماء الفقه والقواعد الشرعية . ويكفي أن نذكر أمثال سحنون بن سعيد ، وابنه محمد ، وأسد بن الفرات وغيرهم . وكانت تلك الظاهرة هي الغالبة على الحياة العقلية والثقافية . ولهذا لا نجد فيها ما نجده من نهضةٍ أدبية زاخرة مثلما كان في الدولة الصنهاجية . وهذا لا يعني نفي الحركة الأدبية في العصر الأغلبي ، ولا نفي النهضة في العلوم الشرعية إبّان الصنهاجيين . ولكنها النسبية التي أشرنا اليها منذ حين .

ولم يكن فقهاء العصر الأغلبي يمثلون أغلب فقهاء عصور الانحطاط وما صاحب ذلك من خمول وانعزال . بل كان لأولئك الفقهاء مواقف الجرأة والاصداع بالرأي ولو أدّى بهم ذلك الى

شيء من العنت والارهاق . وكان الى جانب ذلك تُوجَدُ حرّية الجدل والمناظرة والزهد والتصوف بجانب الكثير من مظاهر التهتُّك والمجون والاستهتار . شأن القيروان في ذلك شأن العواصم الكبرى التي تجمع المتناقضات في مختلف مظاهر الحياة .

وإنهم لَكُثُرٌ أولئك الزّهاد والعلماء والصلحاء الذين امتلأت بِسِيَرِهم كتبُ التراجم والمناقب أمثال طَبقات أبي العرب ، والخشني ، ومعالم الايمان للدباغ وابن ناجي ، ورياضُ النفوس للمالكي وغير ذلك من كتب مفقودة أو مخطوطة .

وإنك لواجدٌ في ذلك العهد الذي نتحدثُ عنه نماذجَ عِدَّةً من أولئك الذين عُرفوا بقوة الشكيمة ، وصلابة العقيدة ، الى وفرة التحصيل للعلوم والتضلّع فيها . وكان ما عندهم من غنى النفس ما بعث فيهم الشجاعة القول ، والاصداع بالرأي . وكان أمرهم بالمعروف ونهيُهم عن المنكر لا يَتَّسِمُ بالضّيق ، ولا يتحرّج بالمنصب ، ولا يعدم الحجة .

ومن هذا الرهط كان أبو حفص عبد الجبار بن خالد السرتي . وقد وصفه أبو العرب في طبقاته بأنه كان صالحا متعبدا ، طويلَ الصلاة ، كثيرَ الدعاء ، مجتهدا . وكان من عقلاء شيوخ إفريقية

سمع من سحنون وعليه اعتماده (1) يجمع الى جانب ذلك الورعَ والتقَى حتى قال فيه سحنون : إنه تقي في بطن أمّه كنايةً عن ورعه وتقاه منذ أن كان صغير السن . وكان كثير التلاوة والتهجد حتى قيل : إنه ختم في مسجده نيّفا وأربعة آلاف ختمة . وحفظ من كلامه :

من قلّ كلامه قلّت آثامه .

من كانت له ولية لم يعدم بليةً .

من زمّ لسانه كثر في الدنيا والآخرة أمانه .

ويمكن أن نذكر لهذا الرجل ثلاثة نماذج من مواقفه المختلفة التي تدلّ على ما ذكرناه عنه من سيرة وورع وتهجد ، وأمر بالمعروف ، وإصداع بالرأي .

فقد ذكر أبو هاشم بن مسرور أنه مضى - ليلة من ليالي رمضان - الى مسجد عبد الجبار السرتي ليصليَّ خلفَه التراويحَ ، فصلىّ معه صلاة العشاء الأخيرة . فلما فرغ منها ، وفرغ الناس من التنفّل قام عبد الجبار السرتي إلى المحراب فقرأ في الترويحة الأولى البقرةَ وآل عمران والنساء والمائدة ، فلما قضاها انصرف كثيرٌ من الناس . ثم قام في الترويحة الثانية فقرأ الأنعام والأعراف والأنفال وبراءة.. قال هشام بن مسرور : فَلَعَهْدِي

1) رياض النفوس (1 : 366) .

برؤوس الرجال أراها في ضوء القناديل تتمايلُ يمينا وشمالا . وتمادَى في القراءة فكان يمرّ في القراءة مَرّاً الجواد فاذا اشتبه عليه الحرف أو تعايى فيه تركه وقرأ ما يليه فيقرأ العشرين آية ، والثلاثين آية ، والأقلّ والأكثر. ثم يتفكّر في ذلك الحرف فيرجع إليه فيقرؤه مفردا . ثم يعود الى الموضع الذي كان فيه فيقرأ منه . قال هشام بن مسرور : فما زال كذلك حتى تراجع الناس الى المسجد من آخر الليل . وتمادى حتى ختم القرآن . وأتاه مؤذنه بقصعة بها شيء من ثريدٍ يسيرٍ فتسحّرَ منه . ثم أذَّن المؤذن ، وطلع الفجر فصلىّ بالناس صلاة الصبح (2) .

وإذا كان هذا الموقف يمثل الافراط في التهجُّدِ والمبالغة فيه فاننا نجد موقفا آخر لعبد الجبار السرتي يبين صراحته مع الحكام ، وحدبه على المواطنين ، فعندما أقام إبراهيم بن أحمد الأغلبي حفلة اختتان أطفاله ذهب أعيان القيروان الى تهنئته بذلك . وكان منهم أهل العلم ومشائخ القيروان . وتكاد تسكت المصادر عن هذه الحفلة وما تمّ فيها لو لم يكن من ضمن المهنئين عبد الجبار السرتي ، فقد ذكرت كتب الطبقات أن عبد الجبار هذا عندما جاء يهنئ إبراهيم بن أحمدَ الأغلبي أكبره هذا الأخير ، وسُرَّ برؤيته ، وعظّمه ، وأخرج له أطفاله فدعا لهم عبد الجبار

---

2) معالم الايمان (2 : 187 ـ 188) .

بالخير والبركه . ثم التفت الى إبراهيم بن أحمد الأغلبي وقال له :

ـ هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم بها الله عليك ! . أعطاك بنين مثل هؤلاء علّمتهم كتاب الله ، وأحييت فيهم سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وقد بلغني عنك أنك بَالَغْتَ فيا عملت من الطعام للأغنياء .

فقال إبراهيم بن أحمد :

ـ أجل ! لموضع المسرة بذلك .

فقال له عبد الجبار السرتي :

ـ فلو استكملت هذه المسرةَ بأن تذكر الفقراء فيها .

فقال إبراهيم بن احمد :

ـ صدقت وبررت .

ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار . ودفعه الى عبد الجبار السرتي . وسأله أن يفرّقه على الفقراء والمساكين . واستجاب عبد الجبار لرغبة الأمير الأغلبي فسرّ لقبوله ذلك . وخرج معه الى باب القصر . وقال لغلمانه :

ـ احملوا الشيخ على دابته .

وظل واقفا وحَلَف الاّ يغادر المكان حتى يركب الشيخ على دابته ؛ فلما ركب عبد الجبار واستوى على دابته ، وأصلح الغلمان

ثيابه وانصرف . التفت إبراهيم بن أحمد الى كاتبه رجاء بن محمد وقال له :

ـ أرأيتَ يا رجاء ما أعقله ! وما أظرفه ! أتعرف في رعيتي مثله ؟ إنه قضى ذمامنا ، وتعافى من طعامنا ، وأخرج مالنا فيما يرضينا .

وذهب عبد الجبار بالخمسمائة دينار يفرّقها على الفقراء والمساكين دون أن يُبقِيَ منها شيئا عنده . (3) .

وموقف آخر لعبد الجبار السرتي يدخل في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتمثل فيه حسن الأدب وفعالية التأثير . دعا فيه الى سبيل الخير بالحكمة والموعظة الحسنة مما أتى بثمرة الصلاح ، والكفّ عن الفساد ؛ فقد نقل عن أبي هاشم ابن مسرور أن عبد الجبار السرتي خرج من داره لصلاة الجمعة ، فاذا شابٌ جميل له هيئة حسنة ولباس جميل قد اتبع صبيةً يمشي خلفها . فلما رآه عبد الجبار شقّ عليه ذلك . وفكر في طريقة يصلح بها ما رأى . لقد كان في إمكانه أن ينتهرَه وأن يصيحَ به . وقد يقلع الشاب عن مطاردة الفتاة ـ اذ ذاك ـ ولكن هل يضمن ذلك إقلاعه وانصرافَه نهائيا ؟ وهل في ذلك الأسلوب طريقة تهذيب ناجعة ؟

---

3) رياض النفوس (1 : 368 ـ 369) ومعالم الايمان (2 : 190 ـ 191) .

من الممكن أن تكون هذه المعاني قد خطرت ببال عبد الجبار السرتي إلا أنه لم يَرَها مفيدة ناجعة . ولهذا عمد عبد الجبار الى أسلوب آخر لا يخلو من طرافة وأدب ، اذ تذكر الرواية أن عبد الجبار السرتي لما شاهد تلك المطاردة الغرامية اتكأ برجله على رجله الأخرى ، وقطع شِسْعَ نعله . ثم صاح بذلك الشاب قائلا :

ـ يا شاب ! يا شاب !

فالتفت الشاب اليه . فمشى اليه عبد الجبار وقال له :

ـ قد كبرت سنّي ، وضعف بصري ، وقد انقطع شسع نعلي ، فأصلحه لي .

وبينما كان الشاب يصلح النعل كان عبد الجبّار السرتي يراقب الصبية ، وإذا هي تمسك في مشيتها . ثم أخذ النعل من الشاب ولبسه بعد إصلاحه . وبعد أن مشى قليلا أعاد عبد الجبار الكَرَّةَ فقطع شسع النعل ونادَى الشاب مرة ثانية ليصلح له نعلَه . فلما جاءه الشاب قال له :

ـ اصلح النعل يا مبارك . ما أصلحتَه إصلاحا جيدا .. أظنك أصلحته وأنت مستعجل . فأخذ الشاب النعل من جديد وأصلحه . ثم مال عليه عبد الجبار السرتي وقال له :

ـ يا شاب . أنا قطعتُ النعل في المرة الأولى ، وفي الثانية .

وإنما فعلت ذلك إشفاقا عليك ، ورحمةً لك . وخفتُ ـ والله ـ يا بنيًّ على هذا الشباب الصبيح من لفح النار .

وبكى عبد الجبار . وبكى الشاب . ثم قال لعبد الجبار :

ـ جزاك الله خيرا ، فوالله ما عدت الى ما كان مني أبدا .

وتذكر الرواية أن الشاب ذهب مع عبد الجبار السرتي الى الجامع وتاب عما فعل ، ولازم السرتي حتى أصبح من فضلاء أهل وقته (4) .

4) رياض النفوس (1 : 367) معالم الايمان (2 : 188 ـ 189) .

ثمن المهراس

عرف العرب من قديم الزمان بالكرم ـ وحتى الافراط فيه ـ فكان ذلك سجيةً من سجاياهم البارزة . وكانوا يفاخرون به ، ويبالغون فيه الى درجة التغالي . وبقدر ما تكون البداوة تكون نسبةُ الكرم موفورةً بين أهلها ، مظهرا من مظاهر حياتهم الاجتماعية لبساطة العيش ، وشعورًا بالتضامن ، وضرورة التعاون على سدّ الحاجات . وذلك عكس حياة المدن والتحضر إذ تقلّ مظاهر تلك السجية لكثرة الحاجات ، ومطالب الحياة ، والمشغلة المتواصلة ولأمرٍ مًا جاء في القرآن الكريم « شغلتنا أموالنا وأهلونا » ...

والمعروف الى اليوم ـ وعند سائر الشعوب ـ أن الأرياف أكثر تَرحابا وحفاوةً بالضيف حتى يصلَ بهم الأمر الى درجة الايثار والمبيت على الطوى تبجيلا للضيف على أنفسهم على حدّ الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة » . وكان

العربي في الجاهلية يفتخر بأن يكرم الجمهور ولا ينتقي . يكرم من يعرف ومن لا يعرف حتى قال أحدهم :

نحن في المَشْتَاةِ ندعـو الجفلى
لا تـرى الآداب فينـا يَنْتَقِـر

وربّما لم تكن للعربي غير مركوبته (الناقة) فينذر بنحرها لضيفه لمجرد رؤيته قادما من بعيد على حد قول الآخر :

أشـار الـى الكومـاء : هذا طارقٌ
نحرتنـي الأعداءُ إن لـم تُـنحَرِي

ويبدو أن سجية الكرم عند العربي لم يتخلّص منها نهائيا رغم ما حصل له ـ بعد انتشار الاسـلام ـ من تكاليف التحضرّ ، ومشاكل التمدّن . وهكذا نجد ـ من حين لآخر ـ بعض سكان العواصم الاسلامية يضرب بهم المثل في الكرم والجود مما يذّكر بذلك الافراط الذي يحكى عنه ، ويتناقله الرواة والاخباريون .

ويمكن أن نذكر ـ من المُثُلِ على ذلك ـ ما نلقاه في مدينـة القيروان في عهـد بنـي الأغلـب ، وفي بداية الدولـة العبيدية الفاطمية . وهذا المَثَل هو في حياة أبي عمرو هاشم بن مسرور التميمي المتوفىً سنة 307 هجرية (1) . فقد جمع هذا الرجل بين

---

1) ينظر عنه رياض النفوس (ج 2 مخطوط ـ 68 ط ، م 972) ومعالم الايمان (2 : 341 ـ 345)

ثلاث خصال قلّما تجتمع عند الكثير من الناس ؛ فقد كان يجمع بين العلم ، والعمل ، والسخاء التام .

أما العلم فكان من تلاميذ محمد بن سحنون ، وأحمد ابن حسان ، وأحمد بن لبدة ، وأبي عمران القراط وغيرهم . (في الطبقات المقداد) .

وأما العمل فكان ، يجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، فكان صاحب فرن يبيع الخبز . وكان طويل الصلاة ، كثير التلاوة . ربما ختم في شهر رمضان تسعين ختمة . اما في سائر أيامه فكان له في كل يوم وليلة ختمتان دون ان يشغله ذلك عن حاجاته وعمله الذي يرتزق منه (2)

أما عن سخائه وكرمه فحَدِّثْ ولا حرج ـ كما يقول المثل القديم ـ فقد روي عنه في ذلك ما يشبه النوادر ... كان هاشم ابن مسرور صاحب فرن لصنع الخبز . فكان ربما أخرج له الخبزُ من الفرن فاذا نظر إليه وأعجبه طيبه ، أمر العمال أن يعطوه للفقراء والمساكين . فاذا جاء المشترون قال لهم : بِعْنَاه ممن يُوفِينا حقه . ثم يبعث بالخبز الى الفقراء والمجذومين بمستشفى الدمنة . ومرّ يوما في بعض الأزقة فعارضه رجل ، وسلّم عليه . ثم مدّ يدَه اليه فقال له :

---

2) المصدر السابق

ـ اعطني فانني مضطر .

فقال له ابن مسرور :

ـ ما معي شيء :

ثم تفكر فمد يده الى تكته فاذا فيها فضة نحو ثلثي درهم مما فضل من مائة دينار . كان تصدّق بها على الفقراء والمساكين ـ فدفع إليه ثلثي الدرهم ، فأخذه الرجل وانصرف حامدا الله . وظل أبو عمرو مفكرا محتارا في ذلك المال القليل الذي أعطاه . وإذا هو يرى في المنام قائلا يقول له : يا هاشم تقبَّلَ الله منك المائةَ دينار بتلك القطاع التي تصدقت بها على ذلك الرجل الذي سألك ، فارتاح بالُه ، وزالت حيرتُه .

وكان يذهب كلَّ يوم خميس إلى سوق الدجاج فاذا رأى امراة أو شيخا بيده فرخ او دجاجة سير إليهم ويقول : ما دعاكم الى بيع هذا ؟ فان شكوا فاقةً أو اضطرارا أعطى كلّ واحد منهم على ما يرى من حاجته وحاله ، ولا ينصرف حتى يذهبَ آخرُ الناس ، وهو متقنع بردائه .

وفي العشية يقعد عند سوق الغزل ، فاذا رأى امرأة خرجت بخصلة لتبيعها قال لها :

ـ ما دعاك الى بيع هذه ... لو تركتها حتى تكملي عليها ؟ .

فان شكت إليه الفقر والاضطرار بكى بكاءً عظيما ، ومشى معها

الى منزلها ، وينظر ما عندها فيعيرُ حالها ، ويدفع اليها ما يصلح إليها من كتان وقمح وغير ذلك (3) .

ولم تكن حياة هاشم بن مسرور تقف عند هذا الحد ، فكان يمشي في الأسواق على ضعاف الباعة يزيد في رؤوس أموالهم . ويقول لهم : كُلُوا الربح وردُّوا الي رأس المال . إلاّ أنه بعد أن يعطيهم ما بقوي رأسمالهم ينصرف عنهم ، ولا يعود اليهم أبَدًا .

وفي الشتاء ـ عند اشتداد البرد ـ كان يقف عند باب تونس وباب نافع وباب أبي الربيع بالقيروان فاذا رأى شيخا أو شابا خارجا بحبل للاحتطاب ردّه . وقال له : ارجع . وهذه نفقتك ، ونفقة عيالك .

وخرج مرة في السحر الى الحمام ، وعليه فرو سنّور تحته قميص ، وعليه منديل ، وبيده سطل ومئزرة ، فمر شيخ ضرير يرتعد ويصيح : البرد ! البرد ! فعدل إليه هشام بن مسرور ورمى عليه الفرو والقميص ، وغطّاه بالمنديل ودفع إليه السطل والمئزرة . وتناول هاشم حصيرا كانت على الشيخ الضرير فجعلها على نفسه ، وعاد راجعًا الى داره .

وروى الحسين بن سعيد الخرّاط أن هاشم التميمي مرّ بابن العزفي وهو يبني حماما فقال له :

---

3) المصدر السابق .

ـ ما هذا الذي تبني ؟

فقال له ابن العزفي :

ـ أخرجت ألف دينار أبني بها حماما يكون عدة لولدي بعدي ، فدعا له بخير وانصرف . فلما وصل بيته أخرج ألف دينار . ثم قال : اللهم ... ابن العزفي أخرج ألف دينار يبني بها حماما يكون عدة لولده ، واني أخرجت هذه الألف دينار لوجهك ، فأنت عدة لولدي . ثم تصدق بالألف دينار على الفقراء والمساكين .

وأول ما تدخل الفاكهة الى القيروان يمشي هاشم بن مسرور الى كلّ كتاتيب القيروان فيقف بالمكتب ويقول للمعلم :

ـ أخرج لي مَنْ عندَك من الأيتام .

فاذا أخرج المعلم مَن عنده من الأيتام : ذهب بهم ابن مسرور الى السوق ، ليشتري لهم الفاكهة ، ودهن رؤوسهم ، وقبّلهم بين أعينهم . ثم يقول : « ... ما عسى أن أصنع بكم ... » ثم يرفع رأسه الى السماء قائلا « .. اللهم هذا الجهد مني » .

ولم تكن مواقف هاشم بن مسرور تشمل المحتاجين من الطلقاء الذين يملكون حريتهم الشخصية فقط ، بل كانت تشمل ـ كذلك حتى المرضى بالمستشفيات والأسرى والمحبوسين في السجون .

واذا لم تخنّي الذاكرة فان التلفزة التونسية عرضت ـ خلال سنة 1972 ـ في برنامج ملفات الشاشة ـ شريطا تجري أحداثه بالقارة الافريقية وتناول موضوعه ـ فيما تناول ـ ما يفعله المبشرون مع المرضى بالجُذام . وعقّب أحد المعلّقين على الشرط بان المسيحية تعامل المجذوم معاملة انسانية بينما تنفّر منهم ديانات أخرى مثل الاسلام .

ودون أن أدخل في مناقشة هذا الحكم المبني على المغالطة أذكر ما كان لهذا الورع الكريم مع المجْذومين في مستشفى الدمنة بالقيروان . ففي كل عيد كان هشام بن مسرور يذهب الى مستشفى الدمنة حيث يوجد المصابون بالجذام فكان يصنع لهم الحلوى ، ويجعل ذلك في ايديهم ، ويطعمهم بيده ، وينظف ثيابهم ، ويدهن رؤوسهم ، ويقلّم أظفارهم ، ويدعو لهم بالخير والشفاء . وكان يفعل ذلك دون ان يمنعه احد . ومن يدري فلعل غيره كان يصنع مثله . وكان يفعل ذلك احتسابا لوجه الله ، واداءً لواجب كان يشعر به .

أما عن فكّ الأسرى فيذكر الاخباريون أنه لما أبيحت مدينة تونس من أحد الامراء الأغالبة حتى سبيت النساء وأوتي بهن الى القيروان كان هاشم بن مسرور يفكّ السبايا بماله الخاص ، وينفق عليهم ، ويصرف لهم الأموال احتسابا لله ، واحتراما

لكرامة الانسان . ويذكر ابنه (القاضي عبد الله التميمي) أنه سمع أباه يقول : كتب إليّ أهلُ السجن رقعةً يذكرون لي فيها ما هم فيه من الجوع والضيق ، وسوء الحال ـ وكنت في ضيق من المال ـ ولم أجد ما أمدّ يدي اليه إلا مهراسا من نحاس كان عندي من تركة أبي فبعته بنحو ثلاثة دنانير . واشتريت لهم قمحا ، وعملته خبزا . ومضيت به الى السجن .

يقول هاشم بن مسرور التميمي : فرأيت والدي في المنام تلك الليلة . فقال لي : يا بنيّ جازاك الله عني أفضلَ ما جازى به ولدا عن والده . قد كان بين يدي الله عقبات عظيمة ، فلقد أعنتني على جواز أعظمها بثمن ذلك المهراس .

إلّا حُبّ النِّساء

يعتبر أبو عقال غلبون بن الحسن من الشخصيات الغريبة في أسرة بني الأغلب ، امراء القيروان . ولم يكتب لأبي عقال أن يتولىً الامارة مثل الكثير من بني عمومته بل جعل منه القدر شخصا متناقض النشأة والنهاية . كان في نشأته معدودا من الحفاظ النبلاء ، ومن الفصحاء الأدباء والشعراء . كان في أرغد العيش وأوسعه بين قصور رقادة وبيوت القيروان . وكان خليعا ماجنا الى حد الاسراف . وإذا به يتحوّل فجأة الى عابد متصوف معدود من الزهاد والصلحاء . ولفظ آخر أنفاسه وهو ساجد خلف المقام الحرام بمكة المكرمة . ويلخص هذه الحياة المتناقضة المالكي في « رياض النفوس » بهذه الأسطر التي تفيض بالصورة ، وطلاوة الأسلوب ، وشبوبية التعبير ، يقول المالكي :

« ... خرج من القيروان فأوطن الحرم وسكنه حتى مات به .

ورفض الدنيا وتركها ولزم السهر ، وسرد الصيام ، وباين أبناء جنسه ، وتشرَّدَ عن الوطن ، وفارق السكن ، وقال في الزهد فأحسن . وكان قد جرر أذياله في الصبى ، وأطال من عنانه في الهوى ، منهمكا في البطالة ، صاحب لهو وصبوة ، مع مروءة وفتوة الى أن تناهت حدود القضاء فشمر وارعوى ، وآثر ما يبقى على ما يفنى فبكى ، وناح على ما سلف من أيامه ، وقارف من آثامه ، صائما نهاره ، قائما ليله حتى كان يضرب به المثل في عبادته » (1) .

وتأسف أخت أبي عقال لهجرة أخيها وفراقه . وتتوسل إليه أن يعود الى القيروان بعد أن أصبح مضرب المثل في الزهد بعد أن كان مضرب المثل في الدعارة . ولكن أبا عقال يصرُّ على الهجرة والمجاورة . وعندما بعثت اليه تقول : بحق الثدي الذي رضعته معك إلاّ أَرَيْتَني وجهك قبل الموت وفراق الدنيا . مالك [يا أخي] في حين صباك وجناياتك وكثرة ما كان يطرأ علينا بسببك كنت عندنا . وحين صرنا نعتز بك ، ونتبرك برؤيتك فارقتنا .

وكان جواب أخيها للرسول الذي بعثته أن قال له : قل لها : ما كنت لأدّع بلدا عرفت الله عز وجل فيه ، وأمضي الى بلد

1) رياض النفوس (1 . 427) .

عصيت الله تعالى فيه .... أخشى أن تقتضيني العوائد » (2) .

وعاد الرسول الى القيروان بهذا الجواب السلبي فلم يبق أمام شقيقة ابن غلبون إلا أن تغادر القيروان وتلتحق بأخيها في رحاب مكة المكرمة . ويشفق أبو عقال على أخته بما تحمّلته من سفر طويل شاق في سبيله فيقول لها :

ـ يا أخت . إن هذا بلد شديد العيش . وليس تمكنك الأشياء به كما تمكنك بافريقية . وأنت قد تعلمت بافريقية العيش الرغد والطعام الطيب . فقالت أخته :

ـ يا أخي اذا لم أجد شيئا أخذت القربة ، وحملت على ظهري الماء وسقيت مع السقايات .

وأمام كلّ ذلك قبل أبو عقال أن تقيم معه أخته في الحجاز بُرورًا بها وتقديرًا لشعورها .

وكان أبو عقال هذا شاعرا قبل التوبة وبعدها . ولكن كتب الطبقات المتوفرة لدينا لم تثبت لنا من شعره إلا ما كان بعد توبته مما قاله في الزهد والمواعظ ، وكان منهجه في الشطر الثاني من حياته الشعرية هو التكفير بالشعر عما قاله في عهد الخلاعة والمجون .

يذكر محمد الكاتب أنه دخل المسجد الحرام فوجد ابن غلبون

2) رياض النفوس (1 . 436) .

قاعدا في الحطيم (3) فسلّم عليه وعانقه . ثم قال له : يا ابن الكاتب :

أمـــا والأكـفّ المهديات سلامَها
إلى مدنـــفٍ لم يستطع أن يسلّماَ
وتلك الخدودُ البيضُ والأعينُ التي
قضيـــن لـدمعي ان يفيض و يسجما

ثم قال له : يا ابن الكاتب استمع قولي في « تكفيرة » :

لاحَ المشيبُ بِلمّتِــي فنعانــي
ونفَى الصِّبـا عنِّـي وزمَّ عناني
ونـأت خطـوبُ الحادثـات بأسرتـي
فبقيـــتُ منفـــردًا مـــن الأقران
فلئـن مضى صـدر الزمـــان بصفـوه
فلأخْدِمَـــنَّ لسيّـــدي المنّــــان
ولأقطعـــنَّ علائقـــي مــــــن غيـــره
حتـى أحـــلَّ بساحــــةِ الميدان
ولأنفيَـــنَّ مطاعمــــي وملابســـي
ولا منعنَّ مــــن الكــــلام لِساني
ولأهـجَرَنَّ أحِبتــــي ومعــــارفي

3) بناء قبالة الميزاب من خارج الكعبة .

ولا قطعَنَّ عصابـــةَ المُجَّــانِ

ولأبكيَنَّ على الصبّا ، ولِمَا مضى

مـــن غرتـي في سالـف الازمـــان

فلعلَّ مَن شَمَلَ العبادَ بفضله

يحيى الفؤادَ بكثرةِ الاشْجان (4)

وفي قصيدة أخرى من هذه « التكفيرات » يفصح ابن غلبون اكثر عما كان يقوم به في عهد مجونه وخلاعته ، ثم يذكر توبتَه ، ويؤكد ندامته . ومن ذلك قوله :

بَلَــوْتُ الزّمانَ ، ودستُ البلاد

ونافســتُ في كـل شيء عنـادا

شربت المدامَ ، وسُسْتُ القِيان ،

وَرُضْتُ الجِيَادَا ، ورعتُ الشدادا

وصعلكْتُ في البرّ والبحر دهرا

أخلّــفُ أهلـي علـيَّ حِــدادا

أسومُ العباد ، وأهـــوى اللـــدادا

وأظهــر فـي الأرض منّي الفسادا

أروحُ على ذا . وهـــذا وذاك

أُديــم السهاد ، وأجفــو المهادا

4) رياض النفوس (1 . 439) .

إلى أن تناهــت حدودُ الفضاء
وأنفــذ سلطانــه مــا أرادا
فجلّـى مــن القلـب إظلامــه
ونوّر مــا كــان مني ســوادا
فألزمتُ نفســي مــدى صبرها
وخالفتُهــا فــي هواهــا عنادا
وباينْــتُ مــا كنــت ألهو به
فأمسى وأصبــح عنــدي سهــادا
وأضحــى الملــوك ، وأهــل النعيم
أقَلَّ البريَّــةِ عنــدي عــدادا
ولــم أرَ عيشا كعيش القُنــوع
ولــم أرَ مثل القُنوع مُرَادا (5)

وفعلا ، لقد باين ابن غلبون عهده الأول بما فيه وبمن فيه إلا شَيْئًا واحدا ظلَّ متمكنا منه فلم يستطع التغلب عليه ... إنه حب النساء . واليك ذلك .

« ... فقد ذكر أبو بكر بن سعدون أن أبا عقال قال له : يا أبا بكر زال من قلبي حبُّ الدنيا إلاّ حب النساء .. » وصدق أبْو عقال في قوله . فقد كانت المرأة عنده سبب المحنة . وكانت عنده

5) المصدر السابق (437 ـ 438) .

سبب التوبة . لقد كان أبو عقال « ... مفتونا بالنســاء . وكان يحضر الأعراس والمآتم بزي النساء . فحضر يوما عرسا لبعض الملوك الأغالبة مع جملة من جواريه على شكل النســاء . فلما جلس بينهن ضاعت درة نفيسة في دار العرس ، فغلقوا الأبواب ووقع التفتيش في النساء واحدة بعد واحدة حتى لم يَبْقَ فِي الدار إلا هو وامرأة . فلما خشي الفضيحة قال : إلهي . لئن سترتني هذه المرة ولم تفضحني لأتوبنّ ثم لا أعود . وكان قد تاب قبلها نحو السبعين مرة ثم نكث .

يقول أبو عقال : وتمادوا [في التفتيش] حتى لم يبق الا انا وامراة واحدة ، وهي ترادفني وتريد أن تكون ورائي ، وأنا أدفعها إليهم الى أن أخذوها فوجدوا الحليْ معها . فقالوا لي : انصرفي يا هذه المرأة ... » (6) وسلم أبو عقال من الفضيحة . وعاد الى منزله فأزال الخُفَّ والمعجر والرداء من زي النساء ، وأخذ يتهيأ لتنفيذ التوبة حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي كانت فيصلا بين عهدين .

يقول محمد بن الكاتب :

« ... كنا نشرَبُ عند أبي عقال بن غلبون في داره . فلما كان بعد العصر خرج عنا من المجلس ، وقد طِبْنَا فقال لغلامـه :

---

6) معالم الايمان (2 . 142 ـ 143) .

اِمْضِ فاشتر لي جبّة من صوف وعباءة وكساء ومئزرا من صوف » .

وظن الغلام أن سيده يريد أن يكسوها لأحد فأتي بها اليه ، وإذا أبو عقال ينزع ثيابه الناعمة النظاف ، ويلبس تلك الثياب الخشنة ، ويدخل بها على أمه . وتندهش أمه لمنظره وتقول له :

ـ ما هذا يا أبا عقال ؟ أخولطت في عقلك يا بني ؟

لكن أبا عقال يجيبها بقوله :

ـ يا أماه ! والله لا عصيته بعد هذا اليوم ابدا .

وانصرف الندامى الى دورهم . وابتدأت التوبة النصوح لأبي عقال . وباع ما كان عنده من دور وعقار وتصدق به ، وخرج الى مكة فارغا من كل شيء إلا من حب الله وحب النساء . ويبقى أبو عقال يصارع هذا الحب الأخير ويخشى عواقبه . فكان يطوف مغطّى العينين خوفًا من الفتنة إلى ان حدث ما خفف عنه العبء الثقيل الذي كان يعانيه وعن ذلك يقول أبو عقال . (7) .

« كنت أطوف مغطّى العينين خوفا من الفتنة فاذا بامراة خراسانية تطوف فنظرت إلي وأنا أطوف . فقالوا لها : هذا رجل من ملوك المغرب طلّق الدنيا وبقي في قلبه حب النساء .... »

---

7) رياض النفوس (1 . 434)

ومن يدري فلعل هذه الخراسانية طلّقت هي الأخرى حب الدنيا وبقي في قلبها حب الرجال . ولهذا نجد الرواية تقول : إنها ما إن عرفت قصة أبي عقال حتى قالت لمن أخبرها : أنا أتزوجه . وأرسلت اليه بذلك . فقال لها أبو عقال : لا أتزوجك حتى تتركي الدنيا ولا يبقى معك شيء منها مثلي . فأخبروها بذلك . واذا هي تتصدق بجميع ما كان معها وتزوجته « ... فأقام معها حتى توفي فدفنا جميعا بمكة ، أبو عقال وزوجته الخراسانية ،... » (8) .

وتعيش شقيقة أبي عقال بعدَه . وتمتحن بموته فترثيه بشعر كتبته على قبره منه هذان البيتان :

يا شقيقا ليس في وجدي به
علّةٌ تمنعنـي مـن أن أجن

فكمـا تبلى وجـوه في الثرى
فكذا يبلى عليهن الحـزن (8)

8) رياض النفوس (1 . 436) ـ المعالم (2 . 144) مع اختلاف بسيط في رواية الابيات .

صَاحِبُ الحِمَارِ الأَشْهَب

لم يكن انتصار بني عبيد على الأغالبة بافـريقية انتصـارا مصحوبا بتأييد الشعب وعامة الناس . ذلك أن المذهب الشيعي الذي حاول العبيديون نشره بافريقية لم يلق النجاح والتأييد إذ كانت المذاهب السـنية أشـد تمكنـا بالنفـوس وأكثـر التصاقـا بالقلوب . واشتد نفور كافة الناس من بني عبيد خاصة عندما انتصب الخليفة أبو القاسم محمد بن المهدي ، فقد أظهر مذهبه (1) [المغـالي] في التشيع وبالـغ في التنـكيل بالمخالفـين لسياسته . وبات الناس يتطلعون الى من ينقذهم من عسف أبي القاسم العبيدي ويريحهم من تنكيله . وانبلج فجر من الأمـل بقيام ثورة مخلد بن كيداد أو صاحب الحمار كما هو مشهور . ولكن الانبلاج كان لفجر كذوب لم يطل فيه الأمل إذ سرعـان ما

---

1) البيان (1 : 216) .

كشفت الثورة عما خيب الرجاء فيها . وسرعان ما خبت جذوتها بعد ان كادت تقضي على دولة بني عبيد الناشئة .

وصاحب الحمار هذا هو أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة البربرية . وتذكر بعض كتب التاريخ ان نسبه يتصل بيفرن البربري والد الكاهنة التي حاولت أن تصدّ الفتح الاسلامي عن الاستقرار بربوع المغرب لولا بطولة حسان بن النعمان الغساني الذي هزمها وقضى عليها .

أما عن نسبه القريب فيذكر عنه أنه من قبيلة زناتة وأن عائلته كانت تقيم بمدينة توزر. وكان أبوه يختلف الى بلاد السودان للتجارة فولد له بها ولد من جارية صفراء هوّارية (2) جيء به الى توزر فنشأ بها وحفظ القرآن . وكان في عهد نشأته بتوزر على صلة بجماعة من الخوارج النكّارية حتّى انتحل مذهبهم وتمكّن منه . ومن توزر انتقل الى مدينة تاهرت ، فأقام بها يعلّم الصبيان القرآن الكريم . ثم عاد الى الجريد فاستقرّ بمدينة دقاش (التي كانت تسمّى حينذاك تقيوس) واشترى بها ضيعة وأقام يعلّم الناس الى أن حانت فرصة ظهوره .

تلك إذن هي الفترة الأولى من حياة المعلّم الذي شغل الدنيا وضج منه الناس : خصومُه وأتباعه .

---

2) اتعاظ (1 : 75)

وظل مدة تعليمه القرآن يدعو الى نحلته السياسية ويكثر من الأتباع حتى أصبح له مريدون يعظمونه وينقادون اليه . وفي سنة 316 هـ أعلن عن دعوته وأخذ أتباعه يكثرون . واستغلّ كره عامة الشعب وخاصة الفقهاء للشيعة والعبيديين فأعلن أنه جاء ليقيم العدل وليحيي السنة ويقاوم الجور. بينما خصومه كانوا يذكرون أن دعوته كانت لتكفير أهل الملّة ، واستباحة الأموال والدماء ، والخروج على السلطان (3) . ويبدو ان اجماع مؤرّخي السنة والشيعة على ذلك يؤكد مذهبه الفوضوي الذي كان يدعو إليه . كما ان ما صحب احتلاله للمدن من نهب واعتداء أيد تلك الاتهامات سواء في احتلاله لباجة أو تونس والقيروان وغيرها . ذلك أن صاحب الحمار استطاع أن يستولي على كلّ افريقية ولم يبق خارجا عنه إلا المهدية التي حاصرها طويلا الا انه لم يفلح في السيطرة عليها . ولو أتيح له ذلك لتغير وجه تاريخ تونس . وليس من السهل التكهن بما كانت ستصبح عليه . ومهما يكن فان الحروب التي أثارها صاحب الحمار في القرن الرابع كانت تمهيدًا لما أتمه بعده الهلاليون في زحفهم على افريقية في القرن الخامس الهجري .

---

3) اتعاظ الحنفا (1 : 75)

وكانت مظاهر التأييد الشعبي الأولى التي لاقاها صاحب الحمار من أهم أسباب انتصاراته . كما كان لصموده هو وقدوتـه في القتال تأثير كبير على أتباعه . من ذلك ما يذكره التجاني في رحلته أن مخلد بن كيداد لما انهزم في جولته في باجة نزل عن فرسه واستدعى بحماره الأشهب فركبه وقال لمن معه : ليست هذه حال من يريد الهرب بل حال من يطلب الموت (4) .

وينقل صاحب البيان المغرب كيف دخل أبو يزيد صاحب الحمار مدينة القيروان وكيف استجاب له الفقهاء والصلحاء وحرّضوا العامة على الجهاد معه فيقول « فدخل القيروان في صفر (عام 332) وأظهر لأهلها الخير وترحم على أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ودعا الناس إلى جهاد وأمرهم بقراءة مذهب مالك . فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبيء وعلى أصحابه وأزواجه حتى ركزوا بنودهم عند الجامع . فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح ، ومعهم البنود والطبول (1 : 217) فلما اجتمع الناس ، وحضر الامام وطلع على المنبر ، خطب خطبة أبلغ فيها ، وحرّض الناس على جهاد الشيعة ، وأعلمهم بما هم فيه من الثواب . ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه . ثم نزل فخرج وخرج

---

4) الرحلة (24)

الناس معه لقتال الشيعة (5) .

ولم يكن هذا المظهر من مخلد بن كيداد الا مظهر مراوغة يحمل وراءه أفكارا أخرى . فاذا نحن قبلنا الخبر الذي ينقله صاحب البيان المغرب تتضح تلك المراوغة وتكشف عن الأهداف البعيدة التي كان يرمي اليها مخلد بن كيداد .

يقول هذا الخبر : إن مخلد بن كيداد لما اشتد أمره واستولى على أغلب البلاد وأن الخليفة العبيدي يكاد ينتهي امره لما حصل كل ذلك قال لجنوده : « اذا التقيتم مع القوم (يعني خصومه العبيديين) فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكّن اعداؤكم من قتلهم. فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم » .

وتّمت فعلا خطة مخلد بن كيداد فنال القتل الكثير من صلحاء وفقهاء القيروان . ولكن المؤامرة انكشفت وعرف عامة الناس غدر ابن كيداد بمناصريه فاشتد بغضهم له وفارقوه . وكانت تلك أكبر هفوة سياسية ارتكبها صاحب الحمار لأنه لم يعرف كيف يحكم دهاءه السياسي والتغلب على خصومه . لقد أراد ان يضرب عصفورين بحجر واحد . ولكن ، فاته أن حكمة التدبير هي أن يستعين بعدو ضد عدو آخر حتى اذا تخلص من أحدهما سهل عليه التخلص من الآخر . وهكذا كانت هذه الهفوة بداية النهاية

---

5) البيان المغرب (1 : 217)

لمخلد بن كيداد فأخذ الاتباع يتباعدون والانصار يقلّون . وبعد ان كان يحاصر المهدية ـ احيانا ـ على أمتار من أبوابها أصبح مطاردا هاربا من هزيمة الى هزيمة الى ان قبض عليه قرب قلعة بني حماد من جبال كتامة في محرّم سنة 336 . وأمر المنصور العبيدي المتغلب عليه بادخاله في قفص ، وجعل معه قردين يلعبان عليه ، ثم أمر بسلخ جلده وحشاه تبنا (6) .

وسجل المنصور انتصاره على أكبر ثورة عرفها العبيديون بافريقية ببناء مدينة المنصورية قرب القيروان وانتقاله اليها سنة 337 . والشذرات القليلة التي نلقاها في كتب التاريخ تبين أن مشغلة ابن كيداد وثورته الدامية كان لها تأثير كبير في الناحية الأدبية فنظمت الملاحم في تسجيل أهواله وأعماله التخريبية ، كما قيلت القصائد في الانتصار عليه .

وعندما اضطر مخلد بن كيداد الى رفع الحصار عن سوسة قال سهم بن إبراهيم الورّاق :

إن الخوارجَ صدَّها عن سوسة
منّـا طِعانُ السُّمْرِ والاقدامُ

وجــلاد أسيـاف تطاير دونها
في النقع دون المُحْصَنات الهامُ (7)

---

6) اتعاظ الحنفا (1 : 85)

7) معجم ياقوت (3 : 192)

وقال أحمد بن صالح السوسي :

ألــمَّ بسوســة بغـى عليها
ولكــنَّ الالــهَ لهــا نصيرُ

مدينة سوســة للغــرب ثغرٌ
تديــن لها المدائنُ والقصورُ

لقد لُعِنَ الذين بغوا عليها
كما لُعِنَت قُرَيْضَةُ والنَّظيــرُ

أعــزَّ الله خالــق كلّ شيء
بسوسة بعدما التوتِ الأمورُ

ولــولا سوســة لدهت دواهي
يشيب لهولها الطِّفْل الصغيرُ

سيبلغ ذكرُ سوسة كلّ أرضٍ (8)
ويغشى أهلها العــدد الكثيرُ

وهناك أرجوزة تتبعت أعمال مخلد بن كيداد من مدينــة الى اخرى لم يصلنا منها مع الأسف إلاّ شيء قليل جدّا . من هذا قول الراجز:

وبعدها باجة أيضا أفسدا
وأهلها أجلى ، ومنها شردا

---

8) المصدر السابق

وهـــدم الأســوار والمعمورا

والدورَ قد فتش والقصورا (9)

وقيل عن مدينة تونس :

فويلٌ لتَرشيشٍ وويلٌ لأهلها

من الحبشيّ الأسود المتعاظم

وكان الخليل بن إسحــاق الطــرابلسي المولــدِ من أخلصِ جالات العبيديين . وكانت له صولة وهيبة وحظ جليل من العلم رباع متسع في الأدب بعثه الخليفة القائم العبيدي الى قتال مخلد ابن كيداد في القيروان فقال من قصيدة بعد توديع القائم :

وما ودّعتُ خيــرَ الخلق طـرّا

ولا فارقتُه عـن طيـب نفـسِ

ولكنّـي طلبــتُ بـــه رضاه

وعفوَ الله يوم حلول رَمْسِ

فعاش مملّكا مـا لاحَ نجم

على الثقلين من جنّ وإنس (10)

وكان خليل بن إسحاق صادقا في حدسه فما هي إلا جولات من مواجهة مخلد بن كيداد حتى انتصر عليه هذا الأخير وقتله وصلبه .

---

9) معجم ياقوت (1 : 456) .

10) اتعاظ الحنفاء (7 : 87)

لقد وصفوا مخلد بن كيداد بأنه كان قصيرا ، يلبس جبّة صوف قصيرة ، وكان أعرج ، قبيح الصورة . أما لماذا لقب بصاحب الحمار فتذكر المصادر أنه بعد أن استولى على تبسة ومجّانه ، ودخل مدينة مرماجنّة فلقيه رجل من أهلها ، فأهدى له حمارا أشهب مليح الصورة فركبه من ذلك اليوم ولازمه في حلّه وترحاله حتى عرف بصاحبه .

بُنُــودُ الفُقَهَـاءِ

رغم ما قدمه العبيديون من وسائل الاغراء أو ما ارتكبوه من التنكيل في سبيل نصرة مذهبهم الشيعي وانتشاره ، فان أهل إفريقية لم يتركوا أية فرصة ينتهزونها للقيام ضد بنـي عبيد . ولعلّ من أبرز تلك المواقف ما حصل عندما ظهـر « صاحـب الحمار ، مخلد بن كيداد » . فقد ناصره الفقهاء والعلماء بمدينـة القيروان ، ودعوا العامة إلى الانضمام إليه ، والوقوف معه . ولولا ما كان عليه « صاحب الحمار » من تهوّر وعدم تقدير للمواقف السياسية لفاز بالنصر ، ولقضى على بني عبيد . ونعني بالتهوّر وعدم تقـدير المواقف السياسية ما استطـاع أن يعرفـه فقهـاء القيروان وعلماؤها من توقع المخاتلة والمراوغة بهم مما كان يضمره « صاحب الحمار » لهم . ولهذا انفصلوا عنه ـ وهـو في أحـرج المواقف ـ عندما كان محاصرا للمهدية وكاد اليأس يستولي على الخليفة العبيدي المحصور ، فكان انفصال الفقهاء والعلماء عن

« صاحب الحمار» بدايةَ النهاية والهزيمة ، وهـي الهزيمـة التـي انتهت الى أن يؤتى به في قفص من جبال أوراس الى افريقية ، وأن يُطَاف به في مدنها . ثم يُنَكَّل به غاية التنكيل .

ولم تكن مناصرة علماء السنة لثـورة « صاحـب الحمار » إلا مظهرا من مظاهر المقاومة التي أبْلى فيها الكثير ، واستشهد فيها الألوف . وقد جاء في « رياض النفوس » (1) عن أبي الحسن القابسي قوله : أخبرنا شيوخنا الذين أدركناهم ان الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله الى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ، ورجل صالح . وفي ذلك يقول سهلُ الوارق :

وأحل دار البحر في أغلاله
من كان ذا تقوى وذا صلوات (2)

وفي الواقعة التي جرت بوادي المالح قرب المهدية سنة 333 هـ استشهد أكثر من خمسة وثمانين ما بين عالم ، وعابد ، وصالح ، منهم أبو الفضل الممسي ، وربيع القطان . وقد قال محمد بن أبي زيد القيرواني في استشهاد أبي الفضل الممسي : « ... وددت لو أن القيروان تسبى ولم يقتل أبو الفضل » (3) كنايةً منه عمّا لهذا

1) رياض النفوس (2 . 166 ب) .
2) انظر كامل القصيدة في الرياض (2 : 127 ب) وحوليات الجامعة التونسية العدد العاشر (144 ـ 148) .
3) المعالم ط سنة 1978 (3 . 30)

الرجل من سمعة الذكر ، فقد « جمع الفقه البارع ، والورع الحاجز ، والسمت الحسن ، وحسن الاشارة ، والهدي والسكينة » . (4)

وكانت شدة التحدي العبيدي لشعور عامة الناس من الأسباب التي زادت من الحدة ، وألهبت المشاعر ، فقد نقل صاحب معالم الايمان (5) عن رياض النفوس أن ربيع القطان عوتب في خروجه مع أبي يزيد الى حرب بني عبيد فقال : وكيف لا أفعل ، وقد سمعت الكفر بأذني ؟ ! فمن ذلك أني حضرت إشهادا وكان فيه جمع كثير : أهل سنّة ومشارقة . وكان بالقرب مني أبو قضاعة الداعي ، فأتى رجل مشرقي من أهل الشرق ومن أعظم المشارقة فقام إليه رجل مشرقي وقال : إلى هنا ـ يا سيدي ـ الى جانب رسول الله ـ على الله عليه وسلم ـ يعني أبا قضاعة ، ويشير بيده اليه ، فما أنكر أحد شيئا من ذلك ، فكيف ينبغي أن أترك القيامَ عليهم ... ووجد بخطه قال : لما كان في رجب سنة إحدى وثلاثين قام الصبيُّ المكوكب بقذف الصحابة ، ويطعن على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعُلِّقت عظام رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت

4) المصدر السابق (ص 27)

5) المصدر السابق (ص . 31 ـ 32)

والدروب عليها قراطيس معلقة فيها أسماء بعنـون بهـا رؤوس الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلما رأى ربيع ذلك لم يسعه التأخر عن الخروج عليهم ... » .

وينقل ابن ناجي (6) : فلما كان بالغد خرج ربيع القطـان وجماعة الفقهاء ، ووجوه التجـار الى المصلىً بالسـلاح الشـاك والعدة العجيبة التي لم ير مثلها ، وضاق بهم الفضاء ، وتواعد الناس أن ينظروا في الزاد وآلة السفر الى يوم السبت ـ وذلك يوم الاثنين ـ وركب بعض الشيوخ من الموضع إلى الجامع بالسلاح ، وشقوا السماط بالقيروان ، وزادوا في استنهاض الناس . فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا في الجامع ، وركبوا بالسلاح الكامل ، وعملوا البنود والطبول . وأتوا بالبنود فركزوها قبالة المسجـد المعـروف بالحدادين . وكانت سبعة بنـود : الأول أصفـر لربيع القطـان مكتوب عليه البسملة ومعها : لا اله الا الله محمد رسول الله . وفي الثاني ـ وهو لربيع أصفر أيضا ـ « ... نصر من الله وفتح قريب على يد أبي يزيد . اللهم انصره على من سبّ نبيّك ... » وفي الثالث ـ وهو أصفر أيضا لربيع ـ بعد البسملة « قاتِلوا أئِمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » وفي الرابع ـ وهو بند احمر لأبي الفضل عباس الممسي ـ « لا إله إلاّ الله محمد رسـول

---

6) المعالم (3 . 32 ـ 33) .

الله » وفي الخامس ـ وهو بند أخضر لمروان العابد ـ بعد البسملة « ... قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ... » وفي السادس ـ وهو بند أبيض ـ بعد البسملة « لا إله الا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق عمر الفاروق » وفي السابع ـ وهو لابراهيم بن الحبشا ، وكان أكبر البنود لونه أبيض لا إله الا الله محمد رسول الله « ... إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إنّ الله معنا ... » .

وكانت تلك البنود السبعة هي التي ذهبت مع رجالها في صفوف « صاحب الحمار » الى محاصرة المهدية حيث جرت معركة وادي المالح المتحدث عنها آنفا .

وكان التباعد كبيرًا بين بني عبيد الحاكمين وبين بقية عامة الشعب ، وقد بلغ الخلاف بين السلطة الحاكمة والفقهاء حدًا لا مجال للتصالح فيه . وإذا كان بعضُ أولائك الفقهاء ، يجاهر بتكفير بني عبيد ويدعو ـ علانيةً ـ الى محاربتهم والجهاد ضدهم ، فقد كان الشعراء ـ من جهتهم ـ ينشرون النصائد ، ويذيعون الأشعار بين الناس ، إلهابًا للحمية ، وحثًا للهمم . من ذلك قول بعضهم :

الماكر الغادر ، الغاوي لشيعته

شـر الزنادق من صحب وتِبَاعِ

الناكثيـن عهــود اللـه كلّهم

قوم الى سَفَهٍ ، في الناس أوْضَاعِ

لو قيل للروم : أنتم مثلهم ، لبكوا

أو اليهود ، لشدّوا صمخ اسماع

ولو عزينا الى ابليس ما مكروا

لقال إبليس : ما هذا مِنَ اطْباعِ (7)

وكان الشاعر أبو القاسم الفزاري من أكبر الشعراء المناوئين لبني عبيد ؛ فقد نظم الكثير من المطولات في شتمهم وهجوهم . ولـكنّ الباقـي من ذلك الشعـر قليل جدا . من ذلك رائيتُـه المشهورة . ومنها هذه الأبيات :

وليس لنا كما لهُمُ حصونُ

ولا جبــلُ أعاليـه وُعُــورُ

ولا سـورٌ أحاط بنا ولكن

لنا من حفظ ربّ العرش سور

ولا نأوي الى بحر ، وإنّــا

إذا قُضِي القضا تُنْجَى النّحور

---

7) رياض النفوس (2 . 167 ـ أ) .

ولكنّـا إلـى القرآن نـأوي

وفي أيماننـا البيـضُ الذكور

وينهي القصيد بقوله :

ألا بأبي وخالصتي وأمّـي

محمدٌ البشيـرُ لنـا النذيـرُ

سأهدي ـ ما حييـتُ ـ له شفاء

مع الركبان ينجد أو يغور (9)

8) المصدر السابق . ومحمد اليعلاوي في حوليات الجامعة التونسية (122 ـ 124) .

... فراسة القاضي

لم تكن « افريقية » ـ في أول الأمر ـ على مذهب فقهي واحد مثلما أصبح يسودها فيما بعد المذهب المالكي . ففي العهد الأغلبي ـ مثلا ـ كانت القيروان تعجّ بأتباع مالك بن أنس ، كما كان الكثير فيها من أتباع أبي حنيفة النعمان ، بالاضافة الى ما كان فيها من أصحاب الرأي ، والقائلين بخلق القرآن وغير ذلك . ويبدو أن الحِدَّةَ بين أصحاب المذاهب المختلفة لم تصل في عنفها الى ما وصلت اليه أثناء الصراع الذي حصل بين الشيعة والسنّة منذ أن جاء العبيديون الى افريقية إلى أن أعلن المعز ابن باديس الصنهاجي استقلاله عن الدولة الفاطمية (العبيدية سابقا) بالقاهرة ، وانتصاره لأهل السنة .

وفي القرن الثالث للهجرة كان الامام سحنون بن سعيد من اكبر المناصرين والناشرين للمذهب المالكي . وكان الى جانبه أشخاص مشهورون باتباعهم للمذهب الحنفي إلاّ أن ذلك لم

يمنعهم من تولّي المناصب القضائية في البلاد . وكان من أشهرهم القاضي سليمان بن عمران الذي ولاّه الامام سحنون القضاء في مدينة باجة . واحتج أهالي باجة على تسميته ، واشتكوا الى سحنون . فقال لهم :

ـ ما تقولون فيه .

وكان جوابهم :

ـ إنه يحكم علينا بمذهب أبي حنيفة .

فقال لهم سحنون :

ـ ما قدمته عليكم إلاّ وأنا أعلم أنه يحكم بمذهبه .

فانصرفوا (1) .

هذا ما يقوله صاحب معالم الايمان بينما نجد في طبقات علماء إفريقية ان سحنون بن سعيد لم يول سليمان بن عمران قضاء باجة حتى امتحنه في مذهبه ، وأظهر له سليمان بن عمران أن مذهبه مذهب المدنيين ، وأنه تارك لمذهب العراقيين . وأقام سليمان حينا من الدهر قاضيا بباجة ما يقضي بقضية حتى يشاور سحنونا فيها (2) .

وكانت العلاقات بين سحنون بن سعيد وسليمان بن عمران

---

1) معالم الايمان (2 : 99) .

2) طبقات ابي العرب (180) .

علاقات يشملها تقدير كل واحد منهما للآخر ، فعندما أراد محمد ابن الأغلب تولية سحنون قضاء القيروان امتنع هو وأشار عليه بسليمان بن عمران . وكان موقف ابن عمران نفسه موقف سحنون اذ أشار على محمد بن الأغلب بأن سحنونا أولى منه بالقضاء ، حتى ذكرعنه أنه قال : ما ظننت أن يشاور [محمد بن الأغلب] في سحنون ، حججت فرأيت أهل مصر يتمنون كونه بين أظهرهم . وما يستحق أحد القضاء وسحنون حي (3) .

وعندما تولى سحنون قضاء افريقية جعل سليمان بن عمران كاتبا عنده الى أن ولاّه قضاء باجة كما تقدم .

واذا كانت العلاقات بين آل سحنون وابن عمران على تلك الصورة فانها تغيّرت بعد موت سحنون ، وتولىّ سليمان بن عمران قضاء افريقية ؛ فقد أصبح التنافس بين ابن عمران ومحمدابن سحنون على أشده . وقد « ... فسدت الحال بينهم إلى أن وجّه فيه سليمان ، فجاءه (محمد بن سحنون) في خلق ممن اتبعه فأغلظ له سليمان في القول حتى قال له : « ما أحوجك الى من يضغك قطن قلنسُوّتك » . ولم تزل الحال تتزايد في فساد ما بينهما الى أن توارى محمد بن سحنون خوفا على نفسه منه . وبعث برسالة الى محمد بن الأغلب أثبت فيها ما كتب به عثمان

3) المدارك (٤ : 56) طبع الرباط .

[بن عفان] الى علي [بن أبي طالب] :

فان كنتُ مأكولا فكن أنت آكلي

وإلاّ تداركنـــي ولمـــا أُمـزّقِ

وعندما اطّلع ابن الأغلب على الرسالة اشتدّ غضبه . وأمـر سليمان بن عمران بالكف عن إذايته ، فخرج محمد بن سحنون من مخبئه وشقّ السماط الأعظم بالقـيروان تحـدّيا لسـليمان ابن عمران . ولم يجد هذا الأخير وسيلةً ينتقم بها من ابن سحنون سوى التنكيل ببعض أصحابه منهم فرات بن محمد الذي ضربه سليمان بالسياط » (4) .

وكان سليمان بن عمران من أحضر قضـاة إفـريقية جوابـا ، وألطفهم حسّا ، وأحدّهم ذهنا . وكان يقول : لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بيّنة لفعلت ، والله لا يقعد بين يديّ الخصمان ويتناظران إلاّ وأنا أعرف من له الحـ نهما (5) . وكان يقول : ينبغي للنحكم عند الشاهد الغريب الذي لا يجد أحدا يعرفـه بعدالة ولا جرحة أن يتعرّف حاله بحال جلاسه ، ومن يسكن اليه من طبقات الناس ، فانه لا يألف الشكل الاّ شكله (6) .

وقد عرف سليمان بن عمران بأنه كان كثير التحكك بالناس في

4) المدارك (4 : 213)

5) المعالم (2 : 100)

6) طبقات أبي العرب (181)

التعريض بعيوبهم وألقابهم . وقد اشتهر هو بلقب « خروفة » . وكان سبب هذا اللقب أنه كان يلازم أسد بن الفرات فلا يلاقى أسد بن الفرات ماشيا في مكان إلا يوجد ابن عمران يمشي وراءه فشبّه اتباعه لأسد بن الفرات باتباع الخروف لأمه (7) . ورغم ذلك اللقب فانه كان يتندّر بألقاب الآخرين . فقد دخل عليه ذات يوم رجل يلقّب بـ « فقوسة » ، فقال له سليمان بن عمران :

ـ كنت أعرف لك مقثأة فما صنع الله بها ؟

فقال له الرجل :

ـ كانت حسنة ، لولا خروفة دخلتها فأفسدتها .

فأسقط في يدي ابن عمران لأنه كان البادىء والبادىء أظلم كما يقولون (8) .

لقد مرّ ما كان يقوله سليمان بن عمران في الشهادة والشهود ، وأنه لو شاء أن يقضي بين الخصمين بلا بيّنة لفعل لأنه يعرف من هو صاحب الحق منهما بمجرد جلوسهما بين يديه لما عنده من قوة فراسة . وكان من أجل ذلك ـ ربما ـ توقف عن اصدار حكمه رغم ثبوت البينة إذا كان وجدانه غير مقتنع بذلك . وقد ذكروا عنه ـ في إحدى القضايا ـ ما يثبت تلك المواقف ، وما قد يعتبر

---

7) المصدر نفسه (180) .

8) المصدر السابق (183) .

أنه أصل لمثل تونسي مشهور اذا كان ما يؤيد ان القضية حدثت عندما كان هو قاضيا بباجة (9) .

تذكر الرواية أنه تخاصم عند سليمان بن عمران رجلان . وأقام المدعي على خصمه بينةً بأربعة شهود أدوا شهادتهم لدى القاضي وقبلها منهم . ثم طلب من المدعى عليه أن يأتي بحجة تنقض تلك الشهادة قبل أن ينفذ عليه الحكم . وكان المدعى عليه يعلم يقينا أنه مظلوم ، لكنه عجز عن الاتيان بحجة يكذب بها شهود خصمه .

وبعد صلاة المغرب ذهب المدعى عليه إلى سليمان بن عمران في بيته ، واستأذن منه أن يقبله . وبعد إلحاح سمح له القاضي بالدخول لأنه عَلِمَ أنَّ الرجل مصمم على المبيت أمام باب بيته حتى يكون أولَ من يلقاه صباحا ، ويخبره بما عنده . ولما مثل الرجل بين يدي سليمان بن عمران قال :

ـ عزم القاضي على ان يسجل علي ، وبقي في قلبي شيء أخبره به ، وأقوله :

فقال له القاضي :

ـ قل .

فأخرج الرجل مصحفا من كمه فحلف له . ثم اتبع ذلك بيمين

---

9) هو قولهم « .. شهادة باجية » .

الطلاق والعتاق والمشي (راجلا الى مكة) والصدقة أنه بريء من ذلك المطلب ، وأن الشهود الذين شهدوا عليه قصدوا بشهادتهم الزور صراحا . ثم خرج الرجل من دار القاضي سليمان بن عمران ، فوقع بقلب القاضي أن الرجل صادق في قوله ، وان خصمه تغلّب عليه بشهادة مزورة ، فظل ليلته يفكر فيما يصنع غدًا اذا جاءه المدعي وطلب منه تنفيذ الحكم .

وفي صباح الغد جلس القاضي ابن عمران في مجلس قضائه بالجامع ، فجاء المدعي طالبا تنفيذ الحكم . فقال له القاضي :

ـ اذهب آتني بالشهود الذين شهدوا عندي في أصل الحق حتى يحضروا تنفيذ الحكم .

فذهب المدعي ثم عاد مصحوبا بشهوده . ولكن القاضي تشاغل عنهم طويلا بالنظر في قضايا أخرى . ثم التفت الى غلامه وقال له :

ـ يا بشر ! اذهب الى فلان في سوق الجمال ، وقل له : ليبعث لي بأربعة جمال حتى أطوف عليها في السوق رجالا شهدوا عندي بالزور .

وعاد القاضي الى الاشتغال بالنظر في قضايا أخرى . واعتقد الشهود أنهم هم المقصودون بكلام القاضي ، وأنه اكتشف تزويرهم للشهادة ، فأخذوا يتسللون الواحد بعد الآخر . وأعاد

المدعي طلبه في تنفيذ الحكم . فقال له القاضي ابن عمران :
ـ أنفذ لك الحكم بحضرة شهودك .
فأجابه المدعي :
ـ لقد أحضرتهم .

فطلب القاضي إحضارهم بنفس المجلس . وذهب المدعي يدعوهم الى الحضور فلم يجد أحدا منهم لأنهم تسلّلوا هاربين خوفا من عقاب القاضي لهم . وحاول المدعي جلبهم الى القاضي فامتنعوا من الحضور . وأبى ابن عمران أن ينفذ الحكم إلا على ذلك الشرط . وملّ المدعي الانتظار ، واقلع عن الطلب (10) .

وهكذا استطاع سليمان بن عمران بفراسته وما استقر في وجدانه أن يحول بين مظلوم تنقصه الحجة وبين ظالم استعان بشهود الزور فلم يتمكن من تنفيذ غرضه .

ويعلق الخشني على هذا الموقف بقوله : وهذا ، وان لم يكن وجه القضاء على ما هو الحق ، فهو من باب اللطف والسياسة .

واذا كان الحكم بالفراسة اختلفت فيه الآراء واشتهر به إياس ابن معاوية فان موقف سليمان بن عمران في هذه القضية لم يكن إلا اجتهادا منه وتثبتا فيما وقف فيه ضميره موقف التردد والتساؤل ما دام ذلك التردد قد انتهى به الى ما هو الحق والعدل . وهل يطلب من القاضي اكثر من ذلك ؟

---

10) طبقات الخشني (181 ـ 182) .

شَعْرَةُ ابْنِ الأَغْلَب

ظلت القيروان عاصمة افريقية عدة أحقاب ملتقى للعلماء والأدباء يأتون من كلّ صوب ، من الشرق ومن الغرب ، بعضهم ليتزود بالعلم ثم يعود الى بلاده ، وبعضهم يفضلها للاقامة والاستقرار . وقسم كبير آخر يقيم بها مدة أثناء عبوره من المغرب الى المشرق أو العكس بالعكس .

وقائمة الوافدين الى القيروان قائمة طويلة لا تكفيها مثل هذه الصفحات . ولكننا سنعرض الى أحد أولائك الوافدين الى القيروان ليختارها محلاً لاقامته وميدانا لعمله في الأدب واللغة وعلوم الشريعة . وكان له مقام محمود وعمل ممتاز .

انه يحيى بن سلاّم أحد أعلام الثقافة الاسلامية في قرونها الأولى . فقد ولد بالكوفة من بلاد العراق ثم انتقل مع أبيه الى البصرة . وكانت القيروان في ذلك العهد مركز امارة الأغالبة الذين ذاع صيتهم في المشرق وبخاصة في بلاد العراق فتاقت

نفسه الى الذهاب اليها والاقامة بها بعد أن ملأ وطابه من العلم والآثار فقد اشتهر بكثرة من لقي من العلماء والرواة حتى انه قال : أحصيت بقلبي من لقيت من العلماء فعددت ثلاثمائة وثلاثة وستين عالما سوى التابعين وهم أربعة وعشرون تابعيا ، وامرأة تحدث عن عائشة رضي الله عنها (1) .

وكان يتبادل الرواية من الذين يروي عنهم الا القليل وكان من جملة الرواة عنه مالك بن أنس والليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة (2) .

ويذكر ابنه محمد أنه قال له : يا بني رويت ستة آلاف حديث أو ثمانية آلاف حديث لم يسألني عنها أحد ولم أحدث بها أحدا (3) .

ولد يحيى بن سلام سنة 124 هـ وتوفي سنة 200 هـ . ولا يعلم بالضبط متى قدم الى القيروان فلما قدم اليها وسكنها عدّ من علمائها وسلك في طبقات رجالها وجلس فيها للاقراء والافادة .

كان ابن سلام ثقة ثبتا ذا علم بالكتاب والسنّة ومعرفة اللغة والعربية (4) .

---

1) رياض النفوس للمالكي (1 : 122) ـ
2) المصدر السابق .
3) المصدر السابق .
4) ابن الجزري (3 : 373) .

وبما أن ابن سلام معدود من أوائل المفسرين فقد كان يسمع تفسيره للناس بالقيروان وتفسيره يعتبر من أقدم التفاسير للقرآن الكريم ومن أهمها حتى قال فيه ابن الجزري « وليس لأحد من المتقدمين مثله » (5) وتوجد من هذا التفسير الى الآن عدة أجزاء مكتوبة على الرق بالقيروان وتونس منسوخة في القرن الرابع الهجري . وتتجه حاليا همّة بعض الدارسين لتحقيقها ونشرها .

واشتاقت نفسه الى الحج وعندما كان راجعا أدركته المنية فتوفي بمصر سنة 200 ودفن بجبل المقطم (6) .

وكان يحيى بن سلام مشهورا بالورع وفعل الخير . ذكر ابنه محمد قال : كنت أمشي مع أبي الى أن انتهينا الى موقف الخيل فبينما نحن نمشي اذ جبذني جبذة شديدة ثم دخل سقيفة وأدخلني معه . فقلت له : يا أبي ما قصتك . فقال : يا بني اني رأيت غريما لي فخفت أن يراني فيرتاع مني أو يخاف . وذكرت قول الله تعالى « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » فقعدنا ساعة ثم خرج أبي فخرجت معه . فلما أن مشينا قليلا قال : يا بني . انه جاء في الحديث « من رحم يرحم » (7) .

---

5) غاية النهاية (3 : 373)

6) لسان الميزان 6 : 260 ، الرياض (1 : 123)

7) رياض النفوس (1 : 124)

وعلى ذكر موقف يحيى بن سلام من مدينه يذكر ابن ناجي في معالم الايمان أنه كان رجل من فضلاء مدينة قفصة يمشي في غابتها ، واذا برجل بين يديه فلما رآه الرجل فرّ من بين يديه ورمى بنفسه الى طابية جنان أظن أن عليها شوكا . فلما رأى ما فعل بنفسه ذلك الرجل تفجّع وسأل عنه . فقال له بعض من حضر : هرب منك لدينك عليه . فقال أوصلتني الدنيا لمثل هذا ورجع الى موضعه وقطع جميع العقود التي له على الناس . وأمر مناديا ينادي في أسواق قفصة : ألا إنه من كان له دينٌ على فلان فهو في حلّ دنيا وأخرى (8) .

ويذكر عن يحي بن سلام أنه كان من خيار الله . دعا بثلاث دعوات استجيبت له :

دعا أن يقضي عنه الدين فقضي دينه ، ودعا أن يكون قبره بمقطم مصر فكان له ذلك ، ودعا أن يورث ولده العلم فكان كما دعا (9) .

أما تمنّيه أن يدفن بجبل المقطم بمصر فلما كان يروى أنه اتخذ مقبرة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب فقد ذكر أن المقوقس قال لعمرو بن العاص : انا لنجد في كتابنا أن ما بين هذا الجبل

---

8) المعالم (1 : 243 ـ 244)

9) طبقات أبي العرب (111) .

وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة . فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بذلك فبعث اليه أن اتخذها مقبرة للمسلمين (10) .

أما ولده الذي يرث عنه العلم فكان ابنه محمد بن يحي بن سلام الذي وصف بأنه كان فقيها فاضلا ، ورعا حافظا ، مطبوعا بالاخلاق ... وكانت له عناية كاملة بالحديث ونقله وروايته ، وضبطه ومعرفة رجاله ، وجملته ، حافظا للسنن جامعا لها عارفا بأصول الديانات ، مظهرا للكرامات ، قديم الطلب للعلم مبرزا في المعرفة والفهم (11) .

وكان على جانب من الشجاعة والاصداع بالرأي مهما كانت هيبة المواجه له وقيمته .

وقد نقل ابن ناجي عن أبي بكر التجيبي أن الأمير أحمد ابن عمر بن الأغلب أجمل بني الأغلب . وكانت له شعرة ، فكان اذا جلس مع الجواري للشرب نظّمت شعرته بالجوهر ويجعل فوقها التاج مكلّلا بالدر والياقوت الأحمر .

وذات يوم نظر أبنُ الأغلب في المرآة فأعجبته نفسه وتكلم بكلام فيه كفر . فلما أفاق أخبر بذلك فبكى وندم وأمر برأسه فحلقت

10) حسن المحاضرة (1 : 137) .

11) المعالم (2 : 95) .

شعرته وتاب .

ولا تقف الرواية عند هذا الحد . فتذكر أن أحمد بن الأغلب جمع فقهاء القيروان وأعلمهم بذلك وسألهم هل له من توبة فصعّبوا عليه الأمر الا محمد بن يحي بن سلام فانه قال له : ان كنت اعتقدت ما تكلمت به فهو عند الله عظيم . وان كنت لم تعتقده فالتوبة مبسوطة ، فتب الى الله تعالى ، وتقرّب اليه بالصدقة .

فقال له (أحمد بن الأغلب) : جزاك الله خيرا كما دللتني على الله تعالى ولم تؤيسني من رحمته التي وسعت كل شيء (12) .

وكان من نتيجة هذا الموقف أن تغيرت حال الأمير العربيد وانصرف الى الانشاء والتعمير حتى أصبح من أكبر البناة للمساجد والمواجل . وكان من جملة ذلك فسقية الأغالبة التي كانت تسمى ماجل باب تونس وكذلك الفسقية الأخرى الكائنة قبلة القيروان ومن ذلك أيضا قبة جامع القيروان الخارجة عن البهو ، والمحراب الذي جاء به مفصلا من العراق ، وكذلك خشب الساج للمنبر .

ومن آثاره كذلك توسيع الجامع الأعظم بتونس وبناء سور سوسة

---

12) المعالم (2 : 96) .

وسور صفاقس وقصر لمطة ودار الملك بسوسة وغير ذلك من الآثار بالاضافـة الى ما تصـدق به من أمـوال طائلـة على الفقـراء والمساكين .

ومهما كان الأمر عن أسباب هذا التحول ، وهل إن موقف محمد ابن يحي بن سلام كان سببا لهذا التحويل فانه يدل على المنزلة التي كانت لمحمد بن يحي بن سنلام وعلى أمنية أبيه التي تحققت فيه فكان ابنا عالما صالحا . وكان من خيار الناس .

عَجُــوز رَقَّـادَة

« أبو الغرانيق » لقب مشهور في تاريخ تونس الأغلبية ، أطلقه أهل القيروان على الأمير الثامن من أمراء بني الأغلب وهو محمد ابن أحمد بن محمد الأغلبي .

كان هذا الأمير مولعا بصيد الغرانيق واقتناصها ، فأنفـق في سبيلها كلّ وقته ، وصرف لها كلّ همّه حتى أصبحـت شغلـه الشاغل ، وعمله المتواصل . وقد بلغ به الأمر أن بنى له قصرا خاصا بهوايته ، أنفق عليه أكثـر من ثلاثـين ألف مثقـال من الذهب .

وضاق الناس ذرعا بأبي الغرانيق هذا ، سئموا انهماكه في لذته وانغماسه في شهواته ، فلما أدركه الأجل تنفسوا الصعداء ، وأقبلوا على والي القيروان ، وهو أخوه ابراهيم طالبين منه أن يتولىّ أمرهم ويدير شؤونهم .

امتنع ابراهيم الأغلبي عن الاستجابة للطلب في أول الأمر لأنه كان عاهد أخاه ـ أبا الغرانيق ـ وأقسم له غليظ الايمان أن يتولّى الامارة بعد وفاته نيابة عنه الى أن يترشد ولده « أبو عقال » فيسلّم له الأمر ويعطيه قيادة الدولة . ولكن أهل القيروان أصرّوا عليه ، وبالغوا في الاصرار ، وقالوا له :

ـ نحن ارتضيناك أميرا علينا ، وليست لنا بيعة لأبي عقال ، فاذهب الى القصر القديم بالعباسية ، وتولّ أمرك فيه ، ونحن من ورائك ، فقد عرفناك واليا عدلا ، وحاكما منصفا ، ومالنا حاجة في صبيّ لم نبايعه ، ولم نجرّبه ، ولا ندري ما سيكون عليه أمره ، ويؤول اليه حاله .

فلما رأى ابراهيم بن أحمد الجدّ من أهل القيروان ، والتأييد على المناصرة ، استجاب لرغبتهم ، فزحف على القصر القديم بالعباسية واستولى على دار الامارة ، فبايعه الناس ، وانقاد اليه الامراء فأصبح صاحب القيروان ، وسلطان افريقية .

واستمر ابراهيم بن أحمد ست سنوات يمثل العدل والانصاف ، ويقوم بالتشييد والبناء ، فأنشأ مدينة « رقادة » على بعد سبعة أميال من القيروان واتخذها دار إمارته ، ومركز دولته ، كما بنى القلاع والحصون ، وشيّد المحارس والرباطات على طول السواحل فساد الأمن ، واتسعت التجارة ، وانطلقت قوافلها

تجوب الآفاق بين المشرق والمغرب ، وتشق فيافي الصحراء الى بلاد السودان ، وتمخر عباب البحر الى بلاد الافرنج .

وفي هذا العهد الزاخر بالاثراء والكسب ، والرفاه والخصب ، كان لأحد التجار ـ لم تذكر المصادر اسمه ـ امرأة بارعة الحسن ، فائقة الجمال ، ذائعة الصيت . فلما بلغ خبرها الى وزير ابن الأغلب شغف بها حبّا ، فرام وصالها وإغراءها . ولكن المرأة كانت أمينة عفيفة ، فردّت طلبه بشمم ، وحالت دون قصده في نبل . وكانت كلما زادت إمعانا في الرفض ازداد الوزير اليها شوقا ، والى لقائها حرصا حتى طال به التفكير ، والتاث عليه الأمر ، وضاقت به الدنيا . لكنه لم ييأس من البحث ، ولم يكفّ عن استنباط الوسائل واكتشاف الحيل .

وفي قصر « الفتح » من مدينة رقادة تعرّف الوزير على امرأة عجوز اشتهرت بصداقتها المتينة لأم إبراهيم بن أحمد ، اذ كانت كثيرة التردد عليها ، والتودد إليها حتى اعتبرها الأمير ابراهيم بمنزلة أمّه ، يكنّ لها العطف ، ويظهر لها الحنان والاخلاص .

أما وزيره فقد أراد من هذه العجوز غير ما يريده أميره ، ولعله كان يعرف أمر العجوز أكثر مما يعرف أهل القصر ، ويعلم من حقيقة أمرها ما يجهله الآخرون ، فتقدم إليها يبثها الشكوى ، وكشف لها عن هواه وتعلقه بزوجة التاجر ، واعترف لها بعجزه عن الوصول اليها .

ولم يكن أمر العجوز معه الاّ أن وعدته بالسعي اليها ، والتأثير عليها . وقالت له :

« أنا أتلطف بها وأجمع بينك وبينها ... » .

وفعلا ذهبت العجوز الى بيت التاجر الكبير بعد ان دلّها عليه أعوان الوزير ، وعندما طرقت باب المنزل خرجت اليها امرأة التاجر ، وسألتها عن حاجتها . فقالت لها العجوز في لهجة يبدو عليها الجدّ والوقار :

« حيّاك الله يا ابنتي . لقد أصيب ثوبي بنجاسة في الطريق ، وأدركتني الصلاة . فاذا تفضّلت علي ، وسمحت لي بالدخول وتطهير ثوبي ، نلت الثواب والأجر ، والحمد والشكر » .

وتغلّبت على زوجة التاجر طيبتها فسمحت لها بالدخول - وان لم تعرفها من قبل - وأظهرت لها الحفاوة والترحيب ، وقدّمت لها يد المساعدة . وبعد أن طهّرت العجوز ثوبها وأدت صلاتها ، قدّمت لها زوجة التاجر ما توفر لديها من طعام ، فاعتذرت العجوز عن الأكل متعللة بالصيام . وشكرت للمرأة حسن صنيعها ، وجميل معروفها . ثم استأذنت في الانصراف ، وهي تقول :

« ... بارك الله فيك من امرأة رحيمة كريمة ... لا أدري كيف أردّ لك الجميل ، أو كيف أجازيك على المعروف . ولكنني سأزورك بين الحين والحين ، فعسى أن يقوّي ذلك بيننا الألفة ،

وينمّي بيننا المودة ، ويكون لك من كلّ ذلك تسلية ، ويشملك أنس ومسرة » ...

وتتابعت زيارات العجوز لبيت التاجر الكبير ، وكانت في كل زيارة تزداد تظاهرا بالمودة ، ومبالغة في المجاملة حتى اطمأنت إليها زوجة التاجر ، ووثقت منها . فكانت تتحدث مع العجوز دون تحفظ أو احتراز ، وأطلعتها على الكثير من أسرارها ، ودخائل حياتها .

وفي كلّ زيارة من تلك الزيارات كانت العجوز لا تني تتحدث عن ابنتها اليتيمة الوحيدة ، وعن شوقها الشديد الى اليوم الذي تفرح فيه بابنتها ، وتزفها الى شريك حياتها ، وحافظ كرامتها .

وذات يوم أقبلت العجوز على زوجة التاجر تعلمها باقتراب زفاف ابنتها بعد ان منّ الله عليها بالخير ، وطلب يدها ابن حلال ، مستور الحال ، محمود النقيبة . وكانت عيناها تفيضان بالدمع ، وهي تتحدث عن ذلك الزفاف المنتظر ، لأنها لا تملك حليا تدخل به البهجة على قلب ابنتها يوم فرحتها . وطلبت من زوجة التاجر أن تعيرها حليّها لتتزين به ابنتها يوم زفافها على أن تعيده اليها بعد الزفاف .

ولم تبخل زوجة التاجر ، وهي المرأة الطيبة القلب ، لم تبخل بالطلب فسارعت الى حليها فجمعته في حقة جميلة من العاج

وسلّمتها الى العجوز . فخرجت بها ولسانها بلهج بالشكر والثناء والدعاء .

وغابت العجوز أياما عديدة دون أن تفي بما وعدت من ارجاع الحلي . ولكن ـ رغم كل ذلك ـ فان المرأة لم يخامرها شكّ في عودة العجوز بالحلي ، انما كان يقلقها أنها لا تعرف منزل العجوز حتى ترسل في طلبها والسؤال عن حالها ، مخافة أن يكون قد نالها مكروه أو حلّت بها حادثة حالت دون مجيئها .

أخيرا جاءت العجوز ، ولكنها لم تأت بحقة الحلي معها . وعندما سألتها زوجة التاجر الكبير عن الحلي أجابتها العجوز في لهجة أسيفة حزينة .

« ... هذا هو سبب غيابي يا ابنتي ... إن حليك أصبح عند غيري ... إنه عند وزير ابراهيم بن الأغلب ... لقد رأى الحلي عندي فأعجبه . ولم يصدّق أنه أمانة عندي فأخذه منّي . وقال لي : لن أسلّمه الا لصاحبته يدًا بيد ... ولما يئست من الحصول عليه جئت لأخبرك بما حصل حتى تذهبي معي الى الوزير لأنه لم يصدقني فيما ادعيت ، وظن بي الظنون ... » .

وأدركت زوجة التاجر الأحبولة التي دبرتها العجوز مع الوزير فخاصمتها وطردتها وترقبت عودة زوجها من السفر . فلما قدم زوجها من سفره قصت عليه الخبر ، وأعلمته بكلّ ما وقع .

ولم يكن من التاجر الكبير الاّ أن ذهب الى قصر « الفتح » برقادة واجتمع بالأمير ابـراهيم بن أحمـد وأفضى اليه بكلّ ما حصل فاغتاظ ابن الأغلب وقال لصاحبه التاجر :

« ... اطمئن بالا ... ان مالك لن يضيع ... وان عرضك لن يخدش ... » .

وذهب الى جناح والدته فسلّم عليها وحيّاهـا ثم سألهـا عن صديقتها العجوز ، فقالت له : انها بخير وهي ما تنفك تدعو لك بالسعادة والفوز . فطلب ابراهيم بن احمد من أمه أن تدعو اليه العجوز ليتبرك بها ويلتمس منها الدعاء ، وعندما أقبلت العجوز أخذ ابراهيم بن أحمد يلاطفها ويؤانسها ، ثم انتزع خاتما من اصبعها وبقي يقلّبه بين يديه ويعبث به . ثم انتحى ناحية وقال لأحد غلمانه :

« ... اذهب الى بيت العجوز ، وقل لابنتها تعطيكِ حقة العاج التي صفتها كذا وكذا ، وفيها من الحلي كذا وكذا ، وأن أمها أرسلتك في طلبه ، والخاتم علامة على ذلك » .

وذهب الغلام ثم عاد الى القصر بحقة العاج ومـا فيهـا من الحلي ، فحمله ابراهيم بن أحمد ووضعه أمام العجوز وقال لها :

« ... مـا هذا الحلي .. ومـن هو صاحبـه ... ومــن أمـرك بأخذه ؟ » .

واندهشت العجوز وأسقط في يدها ولم تدر ما تقول . فأمر ابن أحمد غلمانه بقتلها في الحال وذهب الى صديقه التاجر وسلّم له الحلي ، وقال له :

« ... أما العجوز فقد لاقت جزاءها ... وأما الوزير فإنّي أخشى أن يفتضح الأمر إن قتلته الآن . ولكني سأجعل له ذنبا آخر آخذه به وأجعله سبب عقابه وقتله ... » .

المُضحِكُ أَبُو عَمَّار

كان حزم ابراهيم بن الأغلب ، وشدة شكيمته وحسن تدبيره خير مساعد له على ما وصل اليه من نجاح في ولايته على القيروان . فقد قضى على الثورات والاضطرابات التي كانت سائدة بافريقية منذ أن تمّ فتحها . وكان هذا النجاح هو الذي جعل الخليفة العباسي هارون الرشيد يطمئن على افريقية بأن تصبح امارة لابراهيم بن الأغلب يتوارثها عقبه من بعده . ولم يطل الأمد بابراهيم بن الأغلب فتوفى سنة 196 هـ ، بعد عشر سنوات من حكمه لافريقية . ولم يطل الأمد بابنه عبد الله فتوفي سنة 201 بعد أن ظهر تغيّرٌ من أخيه زيادة الله وأراد أن يحدث جورا في رعيته ، كما يقول صاحب البيان المغرب (1) وهكذا انتقلت الامارة الى زيادة بن ابراهيم بن الأغلب من سنة 201 الى سنة 223 .

---

1) 1 : 95 .

ويعتبر زيادة الله الأول من أشهر امراء بني الأغلب فهو من أكثرهم فصاحة وعلما ، ومن أفصحهم لسانا ، ومن أكثرهم تعميرا للبلاد . وتحصينا لها ، وبناء لثغورها .

وكان مما زاد في شهرته ما تم في عهده من فتح لجزيرة صقلية سنة 212 هـ ، بقيادة القاضي الفقيه أسد بن الفرات .

وقد جابه زيادة الله الأول الكثير من الثورات والاضطرابات حتى كاد ينتهي وأمر دولته في بعض الأحيان . وكان من أشهر الثائرين ضدّه : منصور الطنبذي وزياد ابن الصّقلبية ، وعمرو ابن معاوية القيسي ، وفضل بن أبي العنبر وغيرهم .

وكان من الطبيعي أن تقام هذه الثورات : أولا لأن البربر لم يتعودوا بعد على الاستسلام للسلطة المركزية بالقيروان رغم أعمال ابراهيم بن الأغلب معهم وخضد شوكتهم ، وثانيا لسوء سيرته الذاتية وعدم ثقته في الجند العربي وقوّاده ، اذ هو ـ كما يصفه صاحل البيان المغرب ـ يسيء السيرة في الجند ، ويسفك فيهم الدماء ، ويشتدّ عليهم في كلّ وجه حتى ثاروا عليه في عدة مناطق ، كما ثارت عليه العامة ، فقد أغلظ زيادة الله على الجند ، وأمعن في سفك دمائهم ، والاستخفاف بهم . وحمله على ذلك سوء ظنه بهم لوثوبهم على الامراء قبله ، وخلافهم على أبيه ،

وكان أكثر سفكه وسوء فعله اذا سكر ، وكثر الخوض عليه (2) .

وكانت مواقف زيادة الله الأول مع خصومه تختلف قسوة ولينا ويمكن استعراض بعض العينات منها لما فيها من طرافة أو عبرة .

كان عمرو بن معاوية القيسي عاملا لزيادة اللّه الأول في منطقة القصرين فحدثته نفسه بالثورة وشق عصا الطاعة خاصة بعد ان ثار زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في منطقة باجة سنة 207 . ففي سنة 208 ثار عمرو بن معاوية القيسي بالقصرين وتغلب على المنطقة لعدم وجود حاميات مناوئة لثورته أو مؤيدة للحكومة المركزية وكان لعمرو ولدان يقال لأحدهما حباب ويقال للآخر سجمان . وعندما أقدم أبوهما عمرو على الثورة قال له ابنه حباب :

ـ انك دخلت في أمر عظيم ، وعرضت نفسك للهلاك ، ولست من رجال هذا الأمر ، ولا ينفعك عدد ولا عدّة فراجع أمرك ، واتق الله في نفسك .

تلك كانت نصيحة الولد الشاب لوالده الثائر المغتر . ولكن الوالد لم يتحمل هذه النصيحة الجريئة من ولده واعتبرها إهانة له ، وخذلانا ممن كان يرجو منه التأييد والمناصرة . لهذا عاقبه

2) 1 : 96 .

بأن ضربه مائتي سوط . وتمادى في العصيان والمخالفة ضاربا بنصيحة ابنه عرض الحائط . ولم يمض وقت طويل حتى تحقق إنذار الابن وصدق حدسه ، فقد بعث زيادة الله الأول بجيش كبير لقمع الثورة بالقصرين حيث يرابط عمرو بن معاوية القيسي . وضرب الجيش المركزي حصاره على الجند الثائر . وطال الحصار حتى اضطر عمروَ بن معاوية الى الاستسلام وطلب الامان له ولولديه حباب وسجهان . وجيء بثلاثتهم الى القصر القديم بالقيروان ليعطي فيهم زيادة الله الأول أمره .

وعندما قدموا بهم الى القصر القديم كان زيادة الله في شغل عنهم إذ كان في مجلس شراب مع قوم من أعيان بيته . فأمر بحبس الثائر وابنيه حتى يصحو ويرى فيهم رأيه .

وكان لابن الأغلب مضحك يقال له أبو عمار دخل عليه إثر اعلامه بوصول الأسير الثائر ، فهل كان دخوله صدفة أما كان الأمر مدبّرا من قبل ؟ ينبغي ألاّ ننسى كلمة صاحب البيان المغرب في زيادة الله الأول فقد قال : « وأكثر سفكه وسوء فعله اذا سكر وكثر الخوض عليه » .

ومهما يكن فقد دخل المضحك أبو عمار . وما ان لمحه زيادة الله حتى قال له :

ـ ما يقول الناس يا أبا عمار ؟

فقال له المضحك :

ـ يقولون : انما منعك أن تقتل عمرا بن معاوية القيسي مخافة أن تثِب القيسية على عمّك بمصر .

أكانت كلمات هذا المضحك كافية لتغيير الموقف فطلب زيادة الله الأول من وزيره غلبون أن ينقل عمرو بن معاوية القيسي وولديه من السجن العام الى سجن القصر ؟ وعند منتصف الليل أقبل زيادة الله الى سجن القصر وبيده السيف فقتل عمرو بن معاوية ثم رجع الى القصر ودعا بالولدين : حباب وسجمان فأمر زيادة الله بقتل حباب فقال له حباب :

ـ أيها الأمير : إني مظلوم . وقد بلغتك نصيحتي لأبي فيك حتى ضربني بالسوط .

فقال له زيادة الله :

ـ أجل . قد كان ذلك . ولكني أعلم أنك لا تخلص لي . وأمر بضرب عنقه . واستبقى الولد الأصغر سجمان ، وعند الصباح دعا بترس فوضع فيه الرأسين ودعا بسجمان وقال له :

ـ أتعرف هذين الرأسين ؟

فقال سجمان :

ـ أعرفهما ، ولا خير في الحياة بعدهما .

وجنّ جنون الأمير الأغلبي فأمر بضرب عنقه كذلك . وجعل

الرؤوس الثلاثة في ترس وشرب عليها ذلك اليوم مع أهل منادمته (3) .

قد يكون في القصة مبالغة وتهويل ، وقد يكون فيها الكثير من الحقيقة ما دام منطق الأحداث لا يخضع لمقاييس العقل بقدر ما يخضع لاندفاعات الشهوة حسب التيار الذي يجرفها رحمة كان أو قسوة .

ولعل الحكاية التالية تؤيد ذلك المنهج في السلوك والحكم . في سنة 218 وقعت ثورة الجند بمدينة تونس بعد الثورة الكبرى التي قادها منصور الطنبذي سنة 209 وكاد فيها يقضي نهائيا على الامارة الأغلبية . ففي سنة 218 ثار بتونس فضل بن أبي العنبر وسجل انتصارا على جيوش زيادة الله الأول واستبد بالأمر في مدينة تونس . ولكن محمد بن عبد الله بن الأغلب استطاع أن يتغلب على ابن أبي العنبر ويسترجع مدينة تونس لحظيرة الحكومة المركزية . وفرّ الكثير من سكان تونس خوفا من ردّ الفعل الاغلبي ، إلا أن زيادة الله بعث سنة 219 أمانه لكل من طلب الأمان ممن خرج من مدينة تونس عندما دخلها منتصرا محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فأمّنهم وسكنت أحوالهم . وكان من ضمن هؤلاء الداخلين للمدينة بعد الأمان ثلاثة من الشعراء

---

3) البيان (1 : 97 ـ 98) .

هم عبد الرحمان وعلي ابنا أبي سلمة ، وأبو العزاف . وقدم عليه ثلاثتهم تأكيدا للأمان والصفح . وأنشد بين يديه عبد الرحمان ابن أبي سلمة شعرا مدحه فيه . ولكن أحد الشعراء الحاضرين عند زيادة الله ، وهو يعقوب بن يحي ، لم يعجبه أن يرضى عنهم زيادة الله فقال يحرّضه على الانتقام وأنشده يقول :

تسمّـع أيهـا الملـك المعـان
قوافـي فـي معانيهـا البيـان
يتـمّ أمـان مـن خضب العوالي
وليـس لشاعـر أبـدا أمـان
لأن قوافـي الاشعـار تبقـى
علـى الأيـام مـا بقي الزمان
وقـد يرجى لجـرح السيـف برء
ولا بـرء لمـا جـرح اللسـان

الا أن زيادة لم يلتفت الى قول هذا المحرّض المغرض وأمضى لهم الأمان . وقال لأبي العزاف :

ـ ما منعك أن تستأمن الينا قبل هذا الوقت .

قال :

ـ أيها الأمير . كنت مع قوم حمقى ، يولـون كلّ يوم واليا ، ويعزلون آخر . فرجوت أن تكون لي معهم دولة .

فضحك زيادة الله . وقال :

ـ قد عفوت عنك (4) .

وهكذا ضحكة وهبت الحياة ، ومضحك وهب الموت . والله في خلقه شؤون .

---

4) البيان (1 : 105) .

البَاذِنْجَانِي التَّوْزَرِي

إذا كانت الدولة العبيدية تنسب الى عبيد الله المهـدي فلا يعني ذلك أنه الموطِّد لاركانها وأسسها الأولى ، أو أنه هو أول من قام بعمل ايجابي في سبيلها . وليس من المبالغة في شيء اذا قيل : لو بقي الأمر موكولا لعبيد الله المهدي لما كان لهذه الدولة وجود ، ولذهب عبيد الله كما ذهب الكثير من آل البيت دون أن يكون له ذكر أو مجد . ولكن عبيد الله المهدي كان محظوظا إذ هيأت له الاقدار رجلا داهية ، وقائدا ماهرا ، وسياسيا موهوبا هو أبو عبد الله الصنعانـي المتحـزب لآل البيت والمجنّـد نفسـه لخدمتهم وللدعوة الى تأييدهم ومناصرتهم . وقد تهيأت له الفرصة في بلاد المغرب . وكان العلويون منذ انتصار بني أمية عليهم لا يكفون عن إرسال الدعاة الى مختلف البلاد الاسلامية عسى أن يجدوا أرضا خصبة لزرع مبادئهم فيهـا . وكان هؤلاء الـزعماء يفكرون كثيرا في الرسول الذي يبعثونه حتى يكون أقرب الى

النجاح وتركيز الدعاية . وقد اتخذوا من تجمّع المسلمين في الحج فرصة لبث دعايتهم واختيار مناطق الدعوة . وفي موسم سنة 278 للهجرة قدم أبو عبد الله الصنعاني الى الحجاز واجتمع بجماعة من قبيلة كتامة . وكانوا ـ كما يقول صاحب البيان المغرب نقلا عن الوراق ـ نحو عشرة رجال ملتفين على شيخ منهم . فسألهم عن بلادهم ، فأخبروه بصفتها . وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه . فتكلم أبو عبد الله الصنعاني في المذاهب (الاسلامية) فوجد أن (ذلك) الشيخ يميل في مذهبه الى الاباّضية النكارة . فدخل عليه من هذه الثلمة . ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل ، الى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه . فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : « أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان . ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البرّ ، فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال . فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان . فسألت أين يتأتّى ذلك تأتيا حسنا فذكر لي بلاد مصر » .

تلك هي نقطة الانطلاق في توجه أبي عبد الله الصنعاني الى المغرب مقصده الأصلي متظاهرا أنه يريد مصر . ولكن في مصر ادّعى أنه لم يجد صاحبه فسار مع الحجاج المغاربة الى كتامة

واشتغل مدة بتعليم الصبيان دون أن يكشف عن حقيقة أمره الى أن جمعوا له أربعين دينارا ، فلما قدّمت اليه مع الاعتذار عن قلّتها مدّ يده الى كيس عنده وصبّ منه خمسمائة دينار وقال للشيخ الذي صاحبه من الحجاز :

« ... لست بمعلّم صبيان ، انما الأمر ما أخبرك به . فاسمع . انما نحن أنصار أهل البيت وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة . انكم أنصارنا ، والمقيمون لدولتنا ، وان الله يظهر بكم دينه ، ويعزّ بكم أهل البيت ... وانه سيكون إمام منهم أنتم أنصاره ، والباذلون مهجتهم دونه . وان الله سيفتح بكم الدنيا كلها ، ويكون لكم أجركم مضاعفا ، فيجتمع لكم خير الدنيا والآخرة » .

فقال له الشيخ :

أنا أرغب فيما رغبتني فيه ، وأبذل فيه مهجتي ومالي ، أنا ومن اتبعني . وأنا أطوع إليك من يدك . فمر بما شئت أمتثله .

فقال له الصنعاني : « ادع الخاصة من بني عمك الاقرب فالاقرب » .

فقال الشيخ :

« نعم » .

فنظر الشيخ فيما قاله ، وبثّ دعوته في أقاربه ، ومن يختص بهم (1) » .

ومن هناك ابتدأت الدعوة وأخذ الانصار يتكاثرون حتى عمّ الأمر قبيلة كتامة وبدأ الصراع مع بني الأغلب .

كانت أول هزيمة لبني الأغلب سنة 292 عندما التقى الصنعاني وأتباعه بالقائد الأغلبي ابراهيم التميمي فانهزم الأغلبي ووقع القتل في أصحابه واشتغلت كتامة بالغنيمة والأموال والسلاح والسروج واللُّجم وضروب الامتعة ، وهي أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلّدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة ، وكثر عندهم السلاح ، فشرفت أنفسهم ، وتحققت آمالهم . وصحّ عندهم ما كان الشيعي يعدهم به (ويبسط لهم الآمال فيه من التأييد لهم والنصر والغلبة لعدوّهم) ووقع الوَهْيُ على أهل افريقية وداخلهم الوهن والجزع (2) » .

بهذه الجمل وصف صاحب البيان المغرب أول انتصار لأبي عبد الله الصنعاني على الجيش الأغلبي ، رغم ما كان عليه جيش الداعي من بدائية وقلة ترتيب ، فلم يكن جيشه في أول أمره

---

1) البيان المغرب (1 : 126 ، 127)

2) المصدر نفسه 138

سوى حشد بغير ديوان ، انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه . وكان لا يزيد في كتابه اليهم على أن يقول : « ان الوعد يوم كذا في موضع كذا » ويصرخ صارخ بين يديه « حرام على من يتخلف » فلا يتخلف عنه أحد من كتامة (3) .

وتلك هي الروح النضالية التي تغلب العتاد المادي والتنظيم الحربي لجيش قلّت فيه الطاعة وانعدمت منه الرغبة . وذلك ما كان عليه جيش بني الأغلب وحالة قادته عندما بدأ الصنعاني زحفه على امارة الأغالبة حتى قضى عليها نهائيا سنة 296 .

هذه هي مسيرة الخط الأول في الرسم البياني لصرح الدولة العبيدية . أما الخط الثاني فكان خط عبيد الله المهدي الذي سينتصب أول خليفة فاطمي لهذه الدولة .

تبدأ مسيرة الخط الثاني من مدينة سَلَمية في بلاد الشام حيث كان يقيم عبيد الله المهدي . وشاع خبر قيام الدعوة الفاطمية في المغرب وانتصاراتها على بني الأغلب وصلتها بعبيد الله المهدي فشرعت خلافة بغداد في مطاردة المهدي وطلبه المكتفي العباسي ففرّ عبيد الله مختبيا الى أن وصل مصر . ومنها سلك طريقه الى المغرب مارّا ببلاد الجريد الى أن وصل سجلماسة فنزل عند

---

3) المصدر نفسه 138 .

صاحبها اليسع بن مدرار فاكرمه أول الأمر ، ثم لما عرف حقيقته قبض عليه وسجنه ولم يخلصه من سجنه الا أبو عبد الله الصنعاني ، اذ إنه بعد انتصاره على الأغالبة ترك أخاه أبا العباس على افريقية وتوجه الى سجلماسة في نفس السنة فحاصرها وافتتحها وأخرج منها عبيد الله المهدي وابنه أبا القاسم نزار اللّذين كانا محبوسين في غرفة مريم بنت مدرار . فلما بصر به أبو عبد الله الصنعاني نزل من على فرسه ، وخضع بين يديه ، وبكى من فرط سروره به . ثم قال لمن معه : هذا هو مولاي ومولاكم . قد انجز الله وعده ، وأعطاه حقه ، وأظهر أمره . (4)

ولعل أبرز ما في رحلة (5) عبيد الله المهدي من سلمية الى سجلماسة من طرافة ما ذكره مجد بن محمد اليماني في سيرة الحاجب جعفر بن علي الذي كان مرافقا له في رحلته .

من ذلك أن المهدي لما نزل مصر واكتشف أمره عيسى النوشري ، عاملها من قبل العباسيين ، قبض عليه في أحد البساتين ، ثم استدعاه ليأكل معه فأعلمه أنه صائم فرق له وقال :

---

4) البيان (1 ـ 153) والاتعاظ (65)

5) نشرها المستشرق ايفانون « مجلة كلية الاداب » جامعة القاهرة ديسمبر 1936 .

ـ أعلمني حقيقة أمرك حتى أطلقك .

فما زال يتلطف به حتى أطلقه وخلّى سبيله . ولكن بعض أصحاب النوشري لاموه على ذلك فندم على إطلاقه وأراد أن يبعث الجيش وراءه ليرده . وكان المهدي قد لحق بأصحابه ، واذا ابنه أبو القاسم نزار قد ضيّع كلبا كان يصيد به ، وهو يبكي عليه ، فقال له عبيده : إنهم تركوا الكلب في البستان الذي كانوا فيه ، فرجع عبيد الله بسبب الكلب حتى دخل البستان ومعه عبيده ، فلما رآه النوشري سأل عن سبب عودته ، فقيل له : إنه عاد بسبب كلب لولده . فقال النوشري لأصحابه :

« ... أردتم أن تحملوني على هذا الرجل حتى آخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو لو كان مريبا لكان يطوي المراحل ويخفي نفسه ، ولا كان يرجع في طلب كلب » .

وتركه ولم يعرض له (6) ، وسلم عبيد الله من الحبس والقتل .

وفي رحلة المهدي قصة أخرى مع كلب آخر . وكان ذلك في مدينة توزر من بلاد قسطيلة . فقد روى محمد بن محمد اليماني عن الحاجب جعفر بن علي أنه قال : نزلنا بمدينة يقال له توزر وأقمنا بها أياما الى أن عيّدنا بها . وخرجنا منها في يوم العيد الى سجلماسة . قال جعفر : قال لي المهدي يوما ونحن مقيمون

---

6) الاتعاظ 60،وانظر الهامش السابق

بتوزر : اخرج فاطلب لي خروفا سمينا فان وجدته فاشتره وجيء به . قال (جعفر) فخرجت أطلبه فقال لي رجل من أهل البلدة عندي حاجتك ، فسِرْ معي الى منزلي ، فسرتُ معه فأدخلني الى بيت فيه كلب كثير الشعر في عنقه سلسلة عظيمة وقد احمّرت عيناه . فقال لي : اليوم شهرين أطعمه التمر وهو في سلسلته لا يتحرك وقد ضاق به جلده من الشحم ... قال ووثب إليّ الكلب من السلسلة وهو كالأسد وثبةً لم أشك أنه قطعها وخرق بطن جوفي ، فولّيت هاربا وأنا لا أصدق بالنجاة منه الى خارج الدار ، وصاحب الدار يدعوني من خلفي وأنا لا ألوي عليه ، ولا أطمع في النجاة الى أن دخلت على المهدي وقد طار عقلي ويدي على فؤادي . فلما رآني مذعورا قد امتقع لوني . قال : ما وراءك .. فقلت كيت وكيت . وحدثته القصة . فما زال هو والقائم يضحكان ويهدئانني حتى هدأت (7) .

وأطروفة ثالثة يذكرها اليماني عن جعفر بن علي في مدينة توزر . قال جعفر : وخرجت أشتري بَاذنجانا فلم أجد ما يصلح إلا عند رجل ما رأيت قط في الناس أشَدَّ شرّا منه ، فألحني ساعتين فلما أخذت منه ما احتجت اليه وزنت له الفضة ، فكلما وزنت له شيئا ردّ علي منه ، وقال : هذا زيف ، وهذا رديء حتى دكّني وأنا

7) مجلة كلية الآداب مع اختصار

غافل لم أفطن به الاّ بعد حين ، فلما علم أني دريت عليه وثب عليّ وصلح بالعامة ، وقال : هذا رافضي . وخدش وجهي ، وختم على أطواقي ولطم خدّي وخدش وجهي فلم أتخلص منه الاّ بجهد .

قال جعفر بن علي : فلما وصلت بعد ذلك الى افريقية وفتح الله للمهدي رفع اليه أن رجلا من قسطيلة جمع اليه أهلَها وتملّك عند هروب زيادة الله ، فأنفذ المهدي عاملا الى البلد فقبض عليه وأنفذه الى المهدي بمدينة رقّادة . فلما وصل قال لي المهدي : اخرج وأسأله : ما حمله على ما فعل ؟ قال : فخرجت اليه فاذا هو صاحبي الباذنجاني الذي وثب علي وفعل ما فعل . فخرجت الى المهدي ، وعرّفته فضحك ، وقال : الحمد لله الذي أمكنك منه ، فاخرج واضرب عنقه ... قال فخرجت به الى باب القيروان فضربت عنقه وصلبته (8) .

قد يرى القارىء لهذه القصة شيئًا من القساوة والعنف ، ولكنها لا تخرج عن إطار الجزاء والعقاب على كلّ حال . كما أنها لا تمثل التنكر للجميل مثلما انتهى اليه أمر أبي عبد الله الصنعاني باعث الدولة العبيدية ومؤسسها الحقيقي . اذ لم يمض قليل على انتصاب العبيديين بالقيروان حتى بدأ التنافس

---

8) مجلة كلية الآداب مع اختصار

والصراع على السلطة بين أبي عبد الله الصنعاني وعبيد الله المهدي . وهو الصراع الذي انتهى بقتل الصنعاني وأخيه أبي العباس . وكانت حجة المهدي ممثلة في الرسالة التي بعث بها الى الشيعة بالمشرق ويقول فيها :

« أما بعد فقد علمتم محلّ أبي عبد الله وأبي العبـاس من الاسلام ، فاستزلّهما الشيطـان ، فطهّـرتهما بالسيف والسـلام » . (9)

---

9) البيان (1 : 165)

اِشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي

لم يكن المغرب الاسلامي - في القديم - يعرف حدودا فاصلةً بين أقطاره وأصقاعه رغم اختلاف الحُكَّام في المذهب أو القبيلة أو الأرومة ؛ فكان الناس لا يجدون حرجا أو صعوبات في التنقل من قطر الى قطر ، لاسيا إذا كانوا من العلماء والأدباء وذوي النباهة . فكانوا ينالون الحظوة والاعتبار . والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف الأعصار والأمصار . وكان من هذه الأمثلة أبو الفضل يوسف بن محمد التوزري المشهور بابن النحوي .

ولد أبو الفضل بن النحوي في مدينة توزر سنة 434 هـ وتلقّى فيها العلم . ثم اضطر الى هجرة مسقط رأسه بسبب موقف بعض الحكّام منه . وبعد أن أقام مدةً في القيروان هاجر الى المغرب الأوسط ثم الى المغرب الاقصى . وأخيرًا عاد الى المغرب الأوسط فاستقرّ بقلعة بني حمّاد إلى أن أدركه الأجل المحتوم سنة 513 هـ .

وكان ابن النحوي معدودًا من رجال الفقه ، ومن أهل التصوف ، ومن الأدباء الشعراء ، وكان من أشهر شيوخه المازري والشقراطسي ، والربعي . وعندما التقى باللخمي وسأله هذا الأخير عما جاء به قال له ابن النحوي : جئت لانسخ تأليفك « التبصرة » . (1) فقال له اللخمي : إنما تريد أن تحملني في كفّك الى المغرب .

وكان لابن النحوي في المغرب الاسلامي شأن حيثما حلّ في مراكش ، وسلا ، وفاس ، وسجلماسة . وفي تلمسان وبجاية وقلعة بني حماد من المغرب الأوسط . واعتبر في المغرب بمنزلة الغزالي في المشرق : وقد كان لابن النحوي هذا موقف شجاع ومشرف حول الغزالي ومؤلفاته . ذلك أن علي بن يوسف (سلطان المرابطين) أمر بحرق كتب أبي حامد الغزالي ، وتسليط العقاب على كل من وُجِدَ عنده كتابٌ من كتب الغزالي . وبعث من الأندلس الى سائر أمصار سلطنته بمنشور في ذلك . وفي مدينة مراكش أحرق كتاب « الأحياء » في مشهد كبير فكتب أبو الفضل بن النحوي رسالةً لسلطان المرابطين ينتصر فيها للغزالي ويعلم السلطان المرابطي بأن الأيمانَ التي ألزم الناس بأدائها غير لازمة . وانتسخ كتاب « الأحياء » في ثلاثين جزءا . فكان يقرأ

---

1) علي بن محمد توفي سنة 478 هـ أما التبصرة فهي تعليق على المدونة .

منه كل يوم جزءا خلال شهر رمضان . ونقل عنه انه قال : وددت أنني لم انظر في عمري سوى كتاب « الأحياء » للغزالي .

وقد عرف ابن النحوي بالتعفف والنزاهة ، والاباء والشمم . ولم يكن له مرتزق سوى ضيعة له بتوزر لا يأكل من سواها . وكان يأتيه ريعها حيث كانِ في الجزائر أو في المغرب .

وإذا تأخر عليه وصول المال تعب من أجل ذلك . وفي آخر عمره استقر ابنُ النّحوي في قلعة بني حماد ، وأخذ نفسه بالتقشف فترك اللباس اللّين ، ولبس الصوف الخشن . وكانت جبته إلى ركبته . وكان في سيرته متواضعا سَمْحًا لا يقابل الاساءة بمثلها . ويعتذر للمخطىء معه . دخل عليه أحد الطلبة وبادره بالسلام فأراق المحبرة على جبة أبي الفضل البيضاء فخجل الطالب من فعلته . ولكنَّ شيخَه ابنَ النحوي تدارك الأمر وقال له : كنت أقول : أي لون أصبغ به هذا الثوب . والآن أصبغه حبريا .

وعرف ابن النحوي بالشعر والاجادة فيه . وكان البعض مما نقل عنه من الشعر فيه شيء من التبرم بالحياة وأوضاعها قال ذات مرة :

أصبحت فيمن له دِينٌ بلا أدبٍ

ومن له أدبٌ عارٍ من الدِّين

أصبحت فيهم غريب الشكل منفردا
كبيت « حسّان » في ديوان « سحنون » (2)

وبيت حسان الذي ذكره إشارة منه الى مدونة الامام سحنون في الفقه المالكي التي لم يذكر فيها من الشعر إلاّ بيت واحد هو قول حسان بن ثابت الانصاري .

وهـان على سـراةِ بنـي لؤي
حريـق بالبويـرة مستطيـر

أما ما دفع ابن النحوي الى التشكي من المجتمع وغربته فيه فليس لدينا مصادر تشير الى ذلك او توضحه .

ونقل السيوطي في بغية الوعاة (3) هذه الابيات منسوبة لأبي الفضل النحوي :

عطاء ذي العرش خير من عطائكم
وسيبـه واسـع يرجـى وينتظـر
انتـم يكـدّر مـا تعطون مَنُّكُمُ
واللـه يعطي ، فلا مـنّ ولا كدر
لاحكـم الا لمـن تمضـي مشيئتـه
وفي يديـه على ما شـاءه القدر

2) جاء ذلك في قتل النساء والصبيان في الحرب (المدونة : 2 : 8)
3) البغية (2 : 362) .

ولعلنا بذلك ندرك ماهية ما عرف به ابن النحوي من عزة النفس ومن الشمم والبعد عن اراقة ماء الوجه في سبيل نيل العطاء والمال ولهذا نجده يكتفي بدخله الضئيل من ضيعته بتوزر.

وتقشف ابي الفضل النحوي وزهده لم يمنعاه من استجلاء معالم الطبيعة والتأثر بمحاسنها ولعله سجل الكثير من ذلك في اشعاره لكن لم يصلنا منه الا القليل النادر. من ذلك قوله عن النيل ـ وقد شاقه بهاؤه اثر عودته من الحج ـ يتشوق الى مصر والنيل :

أين مصر ، واين سكان مصر
بيننا شقة النوى والبعاد
حدثاني عن نيل مصر فاني
منذ فارقته الى الماء صاد
والرياض التي على جانبيه
واجعلاه من الأحاديث زادي
رقّ قلبي حتى لقد خلت انّي
بين ايدي الزوار والعوادي

وقال متحدثا عن فاس بنسيمها العليل ومائها السلسبيل :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق

وساكنوك ليهناهم بما رزقوا

هذا نسيمك أم روح لراحتنا

وماؤك السلسل الصافي أم الورق

أرض تخلّلها الانهار داخلها

حتى المجالس ، والاسواق ، والطرق (4)

الا ان اشهر ما عرف به ابن النحوي هي قصيدته « المنفرجة » وهي قصيدة في خمسة وثلاثين بيتا من بحر الخبب تذكر بعض المصادر انه وقع الاعتداء عليه في الطريق ، وسلب منه ماله ، وكان يركب بغلة فاستوحى من الحادث معنى القصيد ، ومن خبب البغلة وزن الشعر.

وتذكر تلك المصادر- ايضا - ان المعتديَ على ابن النحوي راى في منامه تلك الليلة رجلا - وفي يده حربة - قال له : اذا لم تردّ للرجل أمواله قتلتك . فاستيقظ الغاصب مذعورا . وذهب الى ابن النحوي واعاد اليه ما سلبه منه .

وقد حظيت قصيدة « المنفرجة » بسيرورة كبيرة في كل من المشرق والمغرب . وتناولها الدارسون بالشروح عدد منها صاحب « كشف الظنون » تسعة شروح منها واحد باللغة التركية واحيطت المنفرجة بشيء من الحرمة واستجابة الدعوة حتى قال

---

4) المجمل في تاريخ الأدب التونسي (174/175)

بعضهم : انها تشتمل على الاسم الأعظم (5) ويذكر الغبريني في عنوان الدراية ان عبد الله بن نعيم الحضرمي أفرج عنه من السجن بسبب أنه خمس قصيدة « المنفرجة » (6) .

تبدأ قصيدة « المنفرجة » بهذه الأبيات :

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلُكِ بالبَلَجِ
وظلامُ اللّيلِ له سُرُجٌ حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر فاذا جاءَ الابّان تجي

ومنها هذه الأبيات :

مدح العقل الآتيه هدى
وهوى متولّي عنه هج
وكتابُ الله رياضته
لعقول الخلق بمندرج
بِخيارُ الخلقِ هُداتهم
وسواهم من هَمَجِ الهَمَجِ
وإذا كنتَ المقدام فلا
تجزع في الحرب من الرَّهَجِ

---

5) كشف الظنون (2 : 1346 ـ 1347)

6) عنوان الدراية (272) .

فاذا أبصـــرتَ منار هدى

فاظهر فـردا فوق الشبج

اما تخميس عبد الله بن نعيم لقصيدة « المنفرجـة » الـذي اشرنا اليه من قبل فمنه هذا الانموذج :

فتحرَّ بمـــا تلقى رَشَدَا لا يمضي عمــرك عنك سُدَى

واقطع أيّامَك مجتهدا

وإذا انفتحت أبـوابُ هدى فاعجــل لخزائنهـــا ولِجِ

وتلقَّ بعزم رايتَها

واقرأ وتدبَّرْ آيتَها

فعلك تبلغ غايتَها

واذا حاولـــت نهايتها فاحـــذر اذ ذاك من العرج

7) انظر عن ابن النحوي : (البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان 299 ـ 304) ـ عنوان الدراية (272) ـ نيل الابتهاج (349) ـ مجمل تاريخ الأدب التونسي (172) حقيقة التصوف الاسلامي (198) الخ .

صُنْدُوقُ قَصْرِ المَهْدِي

لعبت قضية ولاية العهد في تاريخ الممالك الاسـلامية أدوارًا كبيرة ومتنوعة . وكان غالبُها ينتهي بالمآسي والالآم التي كثيرا ما تتجاوز عائلات تلك الممالك الى الشعوب نفسها . وكان كل ذلك نتيجة للأهواء والمطامح الشخصية ، لا من ولاة العهد فقط ، بل كذلك من المنتفعين بتحويل ولاية العهد من شخص الى آخر .

وكانت نهاية يحي بن تميم الصنهاجي تمثـلُ مأسـاةً من تلك المآسي عندما تنكّر له اثنان من إخوته في لباس طلبة منجّمين حتى اختليا به وقتلاه . يقول عن ذلك صاحب البيان المغرب « ... وفي سنة 509 هـ وصل الى المهدية رجلان أو ثلاثة ذكروا أنهم من طلبة المصامدة عارفين بصناعـة الـكيمياء فأبيح لهما الدخـول الى دار العمـل . فلما أحـكما ما أرادا استأذنـا على السلطان يحي بن تميم ، فقال لهما [السلطان] : أوقفاني على الطرح وحقيقة السر ... » فقالا : « على ان لا يحضر الا أنت

ووزيرك . » فحضر هو ووزيره وعبده أبو خنوس . فصنعا البوط (1) ، وألقيا الرصاص ، وأحميا عليه ، وجعلا كأنهما يخرجان الاكسير ، فأخرجا خناجرهما وقتلا الوزير وأبا خنوس ، وأكثرا في السلطان الجراحات . فبقي يعاني جراحه حتى مات . وقالا له حين جرحاه : « ... أيها الكلب نحن أخواك فلان وفلان نفيتنا وبقيت في الملك ... » وثارت الصيحة ـ اذ ذاك ـ فدخل العبيد وقتل الرجلان للحين » (2) .

واذا كانت نهاية يحي بن تميم على تلك الصورة التي لا تخلو من « طرافة » مؤسفة فان ولايته للعهد من طرف والده تميم بن المعز كانت لا تخلو من « الطرافة » كذلك . وقد تعرض لتلك الأطروفة ابن أخيه عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس في كتابه « الجمع والبيان في أخبار القيروان » ، وكتاب « الجمع والبيان » كتاب مفقود لم يعثر عليه حتى الآن رغم ما يتوقع فيه من أهمية لما اشتمل عليه من أخبار الصنهاجيين ، خاصة أن مؤلفه كان من العائلة الصنهاجية نفسها سافر مع والده الى المشرق واستقر فيه . ثم ألف كتابه المذكور هناك . وكان الكتاب متداولا معروفا في المشرق . وممن اطلع عليه ابن خلكان الموجود

1) البوتقة التي يذاب فيها المعدن/تكملة المعاجم لدوزي .
2) البيان المغرب (1 : 305) .

في القرن السابع الهجري واعتمده في بعض ما كتبه عن ملوك صنهاجة (3) وبالرغم من أن النقد التاريخي قد يقف موقف الاحتراز في بعض جزئيات هذه الاطروفة وتفصيلاتها إلا أنه لا يستطيع نفيها أساسا ولو للبعض من أصولها على الأقل ما دامت مناورات ولاية العهد كانت معروفة وشائعة في سائر الأسر الاسلامية الحاكمة ، كما أن أولاد تميم بن المعز الذين يتجاوز عددهم المائة (4) قد تكون أرضية خصبة وفسيحة للدسائس والمؤامرات في البلاط الصنهاجي سواء من النساء والجواري أو من رجالات الحاشية وأفراد الاسرة المالكة . وكان تميم بن المعز مشهورا بحب النساء واقتناء الجواري . ومما ذكر عنه أنه اشترى جارية بثمن كثير ، فبلغه أن مولاها الذي ابتيعت منه ذهب عقله ، وأسف على فراقها ، فأحضره تميم بين يديه ، وأرسل الجارية الى داره ومعها من الكسوات والأواني الفضية وغيرها ومن الطيب وغيره شيء كثير . ثم أمر مولاها بالانصراف وهو لا يعلم بذلك ، فلما وصل داره ورآها على تلك الحال وقع مغشيا عليه لكثرة سروره . ثم أفاق ؛ فلما كان الغد أخذ الثمن وجميع ما كان معها وحمله الى دار تميم ، فانتهره (تميم) وأمره باعادة

---

3) انظر الجزء (6 : 11) حيث يقول : ورأيت في كتاب الجمع والبيان .

4) البيان المغرب (1 : 304)

جميع ذلك الى داره (5) .

اما ابنه يحيى فكانت قصته على عكس الجارية السابقة ؛ فقد ذكر لرجال دولته أن النخاس عرض عليه جارية ـ وهي أم ولده يحيى ـ فاستحسنها ، ومالت نفسه اليها ، فاشتراها وسلّمها الى خدام القصر . وأمر النخاس بالرجوع اليه ليقبض ثمنها إذ لم يكن عنده ثمنها في ذلك الحين . ثم أخذ يفكر في مال طيّبٍ حلال يخرج ثمنها منه . وبينما كان يفكر في ذلك إذ سمع سائلا يصيح ، ويرفع صوته يطلب الاذن في مقابلته ، فأخرج يحيى رأسه من الطاقة وقال للسائل :

ـ ما شأنك ؟

فقال له السائل :

ـ كنت الساعة أحفر في قصر المهدي فوجدت صندوقا عليه قفل ، فتركته على حاله ، وجئت مطالعا بأمره .

فبعث معه تميم بن المعز من يثق به . وجاء بالصندوق المقفل . وإذا فيه أثواب مذهبات الحواشي قد أفنى الدهر نسيجها ، وبقي ما فيها من ذهب مطروز ، فأمر تميم بصهر ذلك الذهب . وإذا قيمته لم تنقص على ثمن تلك الجارية فدفعه ثمنا لها .

تلك هي أم يحيى بن تميم الذي أصبح وليا لعهد تميم بن المعز

5) الكامل لابن الأثير (8 : 249) .

دون المائة من أبنائه . فهل كان الابن يحيى هو أجدر أولائك الأبناء بالملك أم أن لقصة أمه أثرا في ذلك التفضيل والاختيار ؟ أغلب الظن أن ذلك هو الأقرب توقعا . ولعله ـ مما يؤيد ذلك ـ الصورة التي نقلها ابن خلكان عن ابن شداد حول الكيفية التي تمّ بها اختيار يحيى بن تميم لولاية العهد ، وهي صورة لا تخلو من تكلف وافتعال كذلك .

يقول ابن خلكان (6) : إن الامير تميم ـ قبل وفاته بمدة يسيرة ـ دعا ولده يحيى ومن معه اليه ، فوجدوا تميا في بيت المال فأمرهم بالجلوس ، ثم قال لأحدهم :

ـ قم ... فادخل ذلك البيت وخذ منه الكتاب الذي صفته كذا في مكان كذا .

فقام ذلك الشخص وأتى بالكتاب ، واذا هو كتاب ملحمة وتنجيم .

فقال له تميم :

ـ لم أعطه أنا شيئا ... الله تعالى هو الذي أعطاه .

ثم قال :

ـ إني أخبركم بأمر حديث عجيب .

وكان الحديث العجيب هو أمر الجارية التي اشتراها من عند

6) الوفيات (5 : 256 ـ 257) .

النخاس ... ولم يكن عنده ثمنها حتى جاءه السائل بنبأ الصندوق الذي وجده في قصر المهدي .... تلك هي الصورة التي تمت بها ولاية عهد يحيى بن تميم . وفيها من الغموض والابهام ما يتلاقى مع ما انتهى اليه أمر يحيى بن تميم من موت غامض مبهم في نظر الناقد المؤرخ ، ولكنها في نظر الشاعر هي صورة أخرى ، هي شيء آخر ، إنها الصورة التي نجدها عند ابن حمديس الصقلي عندما قال :

بموت يحي أميت الناس كلّهم
حتى اذا ما عليٌّ جاءهم نشروا
أن يبعثوا بسرور من تملّكه
فمن منية يحيى بالأسى فتروا
أو في عليّ فسنّ الملك ضاحكة
وعينها من أبيه دَمْعها هَمِرُ
شُقَّتْ جيوب المعالي بالأسى فبكت
في كل أفق عليه الأنجم الزهر
وقلّ لابن تميم حزن ما دهما
فكلّ حزن عظيم فيه محتقر
قام الدليل ، ويحيى لا حياة له
إن المنيّة لا تُبْقِي ولا تذر (7)

---

7) الكامل لابن الأثير (8 : 273)

حمام زاجل بين تونس والقيروان

كان انبعاث الدولة الصنهاجية محفوفا ـ منذ بدايته ـ بأخطار الانقسام والتلاشي واذا كان بنو عبيد ـ عندما انتقلوا الى مصر ـ قد عينوا بلكّين بن زيري الصنهاجي خلفا للمعز الفاطمي على أملاك بني عبيد التي تمتد من المغرب الاقصى الى ليبيا ، فانه لم يكن من السهل الحفاظ على تلك البلاد الشاسعة سيما أن أطماع رؤساء القبائل وقادتها لا تحدّ ، كما أن آل زيري أنفسهم قد يناهم الانشقاق والانقسام فيؤول أمرهم الى التلاشي والفوضى . وفعلا فانّ بُلُكّين بن زيري واجه ثورة كبرى ضدّه في المغرب الاقصى لم يستطع اخمادها الا بعد سنوات من الكفاح المتواصل . وكان مما زاد من شدة هذا القتال أن بني أمية بالاندلس كانوا متحالفين مع ثوار المغرب الاقصى ضد الصنهاجيين والفاطميين معا . وقد استطاع بلكّين الصنهاجي أن يعيد الأمر الى نصابه بعد تلك الجهود التي بذلها ، ثم وافاه

الأجل وهو ما يزال يحاول القضاء على جيوب الثوار ما بين تلمسان وسجلماسة سنة 374 هـ وعندما تولّى ابنه المنصور أمر صنهاجة جابهه انتكاس المغرب الاقصى واعلان العصيان بفاس وما حولها ، ثم اندلعت ثورة أخرى بقيادة أبي الفهم الكتامي في المغرب الاقصى كذلك ، ثم جابهه عصيان أفراد أسرته فثار ضده عمه أبو البهار بتيهرت وتولّى باديس نصير الدولة (ثالث ملوك صنهاجة) شؤون البلاد وهي لم تسلم من شوائب التمرد والعصيان . وكادت تقع فتنة في الاسرة الحاكمة لو لم تقع الاطاحة برؤوس مدبريها ، وبعد ثلاث سنوات من تولّي باديس زَحَفَ زيري بنُ عطية الثائر بفاس على مدينة تيهرت واستولى عليها ثم كانت ثورة فلفل بن سعيد الزناتي في طبنة الى أن انتهت باستفحال أمره واستقلاله في طرابلس الغرب . ثمّ كانت ثورة ابن المغيرة التي لم يستفحل أمرها كالثورات السابقة . وفي عهد باديس هذا اشتد استفحال الشقاق في الاسرة الصنهاجية الحاكمة خاصة مع أخيه حمّاد خاصّة في تامديت وما حولها حتى وافاه الأجل في المحمدية سنة 406 وهو في حالة حرب مع أخيه المذكور .

وفي عهد باديس وقعت أطروفة تاريخية مع أهل مدينة تونس عدّت من مناقب الشيخ محرز بن خلف . وإذا كانت المطامع

الشخصية والمطامح السياسية قد دفعت الكثير الى الثورة ضد باديس الصنهاجي وأسلافه أو أوقعت الدسائس والمؤامرات حتى أودت بالكثير من الناس ، فان الصراع المذهبي بين السنة والشيعة كانت له مظاهر أخرى في إيغار الصدور أو بعث الفتن ، وتهييج العامة ، واذا كانت مدينة تونس ـ عندما كانت القيروان عاصمة البلاد ـ تعتبر المنافس الأكبر لها ـ نتيجةَ ما قام فيها من ثورات لعلَّ من أشهرها ثورةَ منصور الطنبذي سنة 209 هـ ، وتعرضت بسبب ذلك الى الكثير من مآسي الحرب وويلاتها ـ فانها في هذه المرة وفي عهد باديس الصنهاجي كادت تتعرض للويل بسبب الصراع المذهبي بين الشيعة العبيدية وبين أهل السنة سكان البلاد . فقد أوعز بعض الوشاة من حاشية البلاط الصنهاجي الى الأمير باديس أن أهل تونس مبغضون فيه وفي دولته . فما كان منه الا أن بعث رسولا الى عامله بمدينة تونس يقول له : اقبض على كل من يشار اليه من العلماء وأهل الدنيا ، وخذ أموالهم ، واضرب رقابهم .

وكان بالقيروان رجل من أهل السنّة محبّا في أهل تونس ، وكان له فيها صديق . وكان عند (هذا) الرجل زوج من الحمام الزاجل واحد عند صديقه بتونس والآخر عنده بالقيروان كان يستعملها للمراسلة وتبليغ الاخبار (فما جرى من خبر

بالقيروان كتب به الى تونس لصديقه ، وما جرى من خبر بتونس كتب (صديقه) له الى القيروان .

كانت بين الرجلين ـ اذن ـ مهمة سرية لا تتعلق بشخصيهما بل كانت تتجاوز ذلك الى ما هو أعمّ وأشمل وأخطر ، وليس من المستبعد ان ما أشرت اليه من صراع مذهبي بين السنة والشيعة كان السبب الاصلي في هذا الترابط بين أهلِ السنة في القيروان وأهل السنة في تونس عن طريق الحمام الزاجل .

فما ان سمع سنّيّ القيروان بما عزم عليه باديس وما وجهه الى عامله بتونس من تعليمات حتى كتب رسالة وعلقها في الحمام الذي طار بها الى تونس ووصلها في نفس اليوم ، وعندما استلم صديقه بتونس الرسالة مضى بها الى أهل العلم وأوقفهم على حقيقة ما يراد بهم وما دبّر ضدهم . فلما نظر العلماء في الكتاب نظر بعضهم الى بعض في دهشة وحيرة ، وقال بعضهم لبعض : مالنا في هذا الأمر الا المؤدب محرز (بن خلف) فذهبوا اليه وأطلعوه على ما جاء في الرسالة ، فلما سمع ما فيها قال لهم : اكتبوا فيه : أي لباديس .

« ... قالت طائفة ليست من أهل العلم والكتاب انهم ضعفاء من أهلِ تونس يؤخذون فيطلبون في أمواهم وأرواحهم ، وعلى السلطان النظر في ذلك . فاحذر رأي وزراء السوء الذين يأكلون

في دراهمك ، ويقربون لحمك وعظمك ودمك من النار . وأنت على سَفَرٍ فَخذِ الزّاد . والسلام على من اتبع الهدى ... » .

كانت الرسالة مهورة دون ريب بامضاء محرز بن خلف ، لأن ما يأتي من سرد الرواية يؤيد ذلك ؛ فقد أرسل كتاب محرزابن خلف مع الحمام الموجود بتونس . فوصل يومه الى القيروان فذهب به صاحب الحمام الى مجلس القاضي فقريء على من حضر وبما أن الرسالة ليس فيها تمجيد لباديس أو تملّق له فقد اتفق الحاضرون على أن تعاد صيغة الرسالة وفيها تمجيد لباديس وتعظيم له الا أن واحدا منهم صاح فيهم لا تغيروا كتاب الشيخ . فالذي كتب عرف لمن كتبه ، والذي يصل اليه يعرف من كتبه .

وهكذا حمل الكتاب ولم يغيرّوا فيه شيئا حتى وصل باديس وقُرِىءَ على باديس الكتاب فتأثر به رغم ما عرف عن محرزابن خلف من مواقفه الصارمة والجريئة ضد الشيعة والعبيديين ، وقد حاول وزير باديس أن يستغل تلك المواقف فقال لباديس : إن ابن خلف ما يزال على بغضه ونفاقه . ولكن باديس ردّ عليه بعنف : أو بلغ من قدري وقدرك عند محرز أن كتب الينا ! إنما هي هدية من الله أهداها لنا ! ؟ ولم يكتف باديس بهذا الردّ بل نكّل بهذا الوزير وأمر بقلع أسنانه . حسبما تقول الرواية .

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحدّ . فقد دعا باديس أحد خدامه وقال له : خذ هذا الكتاب واحمله الى السيدة ـ يعني زوجته ـ وقل لها : هذا كتاب محرز بن خلف فاحتفظي به ، ولعل بركته تعود علينا وعليك .

فلما اتصلت زوجته بالكتاب طيّبته ، وخرزت عليه ، وعلّقته عليها ، وكانت اذ ذاك حاملا . فقالت لعل بركته تعود علينا وعليك . وولدت ولدا كان هو المعز بن باديس الصنهاجي واسطة عقد الدولة الصنهاجية . واذا علمنا ان ولادة المعز كانت سنة 397 أمكن لنا أن نحدد الفترة التي جرت فيها هذه القصة .

لم ينس باديس السبب الأصلي الذي من أجله كاتبه محرزابن خلف فقال : سبحان الله . والذي بعثنا الى تونس ما وصل اليها .

وكتب من ساعته رسالة الى عامله بتونس يطلب فيها العفو عن أهلها . وقال فيها : فقد عفي عنهم ببركة محرز بن خلف ، وتسلّم صاحب الحمام الزاجل تلك الرسالة وأودعها عنق حمامه فوصلت الرسالة الى تونس في نفس اليوم وقبل وصول مبعوث باديس الحامل لرسالة الانتقام وعندما وصل هذا المبعوث أرسل عامل المدينة في طلب العلماء وأهل البلد ليعلمهم بما قرره باديس بشأنهم ، ولكنه فوجىء برسالة باديس الثانية التي فيها العفو

عنهم فأسقط في يده ولم يعاقب منهم أحدا .

وهكذا حالت رسالة محرز بن خلف دون فتنة لا يعرف مداها دبّرها أهل السوء من بطانة باديس الصنهاجي . وهكذا اعتبرت تلك الرسالة من مناقب ابن خلف وتناقلتها كتب التاريخ ، واذا كان الجانب الصوفي هو الدافع الأصلي لاثباتها فان ما فيها من جوانب التاريخ السياسي والاجتماعي ما يجعلها وثيقة هامة وأطروفة من طرائف التاريخ التونسي .

المرجع : مناقب محرز بن خلف نشر روجي ادريسز ـ طبع بارس 1956 . صفحات 144 ـ 147 .

وَوَالِــدٍ وَمَــا وَلَد

اذا كانت جوانب السلب تدعو الى الأسى والحسرة في العهود الأخيرة للدولة الصنهاجية على الصعيد الرسمي للدولة تسييرًا ودفاعًا وحصانةً فاننا نجد على العكس من ذلك بعض المظاهر الشعبية التي ترفع الرأس ، وتدعو الى الاعتزاز والافتخار .

واذا كانت مواقف الدولة الصنهاجية أمام الغزاة النرمانديين تمثل الاستسلام أو الخنوع في غالب الأحيان ، بل انتهت تلك المواقف الى الاحتلال والقضاء على الدولة ؛ فان موقفا شعبيا كان على النقيض من ذلك يمثّل الفداء والتضحية ، ويقيم الدليل على أن تلك الروح لو سادت مختلف الطبقات والمناطق في ذلك الوقت لذهبت أحلام النرمان أدراج الرياح ، ولظلت دولة صنهاجة تمثل الهيبة والحرمة ، وتبعث العزة والبهجة .

أما هذا الموقف الشعبي فقد تمثل في الثورة التي اندلعت بصفاقس ضد الغزاة النرمان والتي تمثلت فيها أروع مظاهر

الفداء والتضحية من أبي الحسن الفُرَيَانِي وابنه عمر ، وقد ذكر ذلك باطناب عبد اللهِ التجاني فيِ رحلته .

ففي سنة 543 هـ ـ عندما استولى النّرمان على المهدية وفرّ صاحبها الحسن بن علي ناجيا بنفسه ـ بعث روجير النرْمندي بأسطوله الى صفاقس واستولى عليها . وأعطى الأمان الى أهلها وأسكن بها جملة من الجنود الذين استولى بهم عليها . إلاّ أن روجير لم يكن مطمئنا على هذا الاحتلال وخاف من الانتقاض عليه والثورة ضده . ولهذا عمد الى أخذ جماعة من أعيان مدينة صفاقس رهائن لما عسى أن يقع من الاحداث . وكان من جملة تلك الرهائن شيخ بلدة صفاقس أبو الحسن الفرّياني . وكان رجلا معزوفا بالتقوى والصلاح وعدم الخشية من أي شيء الا من خالقه سبحانه وتعالى . وكان لابدّ أن يضع روجير بدلا عن الشيخ أبي الحسن الفرّياني حتى يتصرّف في البلاد ويسيرّ أموره تحت سيادة النرمان واحتلالهم واحتياطا لذلك اختار عمر الفرياني ابن شيخ مدينة صفاقس لتلك المهمة ، وفي مقابل ذلك أخذ والده أبا الحسن رهينة عنده مع جملة الرهائن التي حملها النرمان معهم من صفاقس الى صقلية .

وكان الشيخ أبو الحسن ـ قبل أن يغادر صفاقس الى صقلية ـ قال لابنه عمر مودعا : يا بني ، إني قد كبرت ، وأشرفت على

الموت . وقد صدّقت نفسي على المسلمين فان أمكنتك الفرصة من هؤلاء النصارى فانتهزها ودعني أقتل .

إنه لموقف رهيب ومشرف بلا شك . هذا الشيخ يوصي ابنه بالانقضاض على المحتل إذا سنحت له الفرصة ، ويعلمه بأنه صدّق نفسه على المسلمين ، وأن النرمان اذا هددوا بقتل الوالد فليتغلب الابن على عواطفه وليمض في سبيله ، وليدع النرمان يقتلون أباه في سبيل استقلال صفاقس وتحررها من قوات الاحتلال والجيش الغاصب .

قد يصعب أن نتصور ما كان يخالج ضمير الابن وهو يستمع الى كلام والده وهو يُودِّعُه رهينة عند جيش الاحتلال وقوى الغزو . ومن يدري فلعلها أن تكون هي النظرة الأخيرة التي يرى فيه والده ، ولعلها الكلمات الأخيرة التي يسمعها منه ... إنه يدعوه الى الثورة ، الى الانتقاض على المحتل الغاصب ... يرجوه ألا يفكر في مصيره ... أن يتركه يقتل بسيف الأعداء اذا سنحت له فرصة الانتقاض . ولكن هل تسنح هذه الفرصة ؟ هل يكون لعمر الفرّياني الشجاعة الكافية ليضحي بوالده في سبيل تحرير بلده ، مدينة صفاقس ؟ .

قد تكون لمخيلة الروائي والقصاص الأديب افتراضات وتكهنات . ولكن منطق الواقع لم يدع المجال لمخيلة الروائي

والقصاص الأديب جتى يغوصا في التكهنات والافتراضات انه واقع التاريخ الذي سجله الوالد والولد مما قد يفوق مبالغة الصورة و إفراط التخيل .

وفعلا سنحت الفرصة ، وكان ذلك سنة احدى وخمسين وخمسمائة أي بعد ثماني سنوات من سيطرة النرمان على صفاقس ، ففي هذه السنة ثار أبو علي عمر الفريّاني على جيش الاحتلال ، وأوقع به القتل الذريع ، وحرر البلاد من الذل والاستعباد . وطار الخبر الى صقلية فاغتاظ صاحبها وكان غليوم بن روجير ، فأمر بقيد الشيخ أبي الحسن وسجنه . ثم بعث الى ولده عمر الثائر بصفاقس وينذره بتهديده بأن والده سيقتل اذا لم يكف عن الشغب ، ويعود الى الطاعة والانقياد . ووصلت سفينة الانذار الى شواطىء صفاقس . وبالرغم من أنها لم تستطع الاقتراب من الشاطىء حين وصولها بسبب هيجان البحر فقد بلغ خبرُ وصول السفينة الى عمر الفرّياني ، وأن على متنها رسولا من صاحب صقلية جاء ليبلغه قرار ملك صقلية قتل والده أبي الحسن الفرياني اذا لم يعد الى الطاعة .

ويحكي رسول صاحب صقلية أنه عندما لم يتمكن من النزول الى البرّ في ذلك اليوم ظل بسفينته الى الغد . وفي صبلح هذا الغد كان يسمع وراء الأسوار ضجيجا عاليا . ثم مالبثت أبواب

السور أن فتحت وخرج منها الناس يهلّلون ويكبّرون ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم . ثم تقدم الشيخ عمر الفرياني فصلّ بتلك الجموع على النعش صلاة الجنازة ، ودفن ما في النعش ، ثم انتصب للعزاء فعزاه الناس وانصرفوا .

كان حامل الانذار الصقلي ينظر مندهشا لهذا الموكب الذي شاهده . فأراد أن يعرف حقيقة الخبر ، فبعث من يأتيه بصحة ما رأى . وجاء الجواب يقول له : إن الشيخ عمر مشغول اليوم بعزاء والده الذي ظل من سنة 543 رهينة بصقلية . وأن النعش الذي كان إنما هو نعش الشيخ أبي الحسن ، لأن الشيخ عمر عزم على موت والده والسلوّ عنه . ولهذا فان رسالتك تعتبر منتهية ، وأن إنذارك الجواب عنه هو ما رأيت من موقف الشيخ عمر في شأن والده .

وعاد صاحب الانذار يحمل جوابه الى صاحب صقلية ، ولم يكن الجواب رسالة أو نتيجة محادثة ، وعندما وصل صاحب الانذار الى صقلية وأعلم سيده بما شاهد اشتد غضب غليوم ابن روجير ، وعزم هو كذلك على تنفيذ الانذار فأمر بالشيخ أبي الحسن الفرياني بسحبه الى المشنقة بوادي عباس في مدينة بالرم ونفذ فيه حكم الاعدام شنقا وهو يتلو كتاب الله الى آخر رمق من حياته .

وهكذا تنتهي هذه النادرة العجيبة في البطولة والتضحية والفداء . والتي لم تكن نتيجتها محصورة في صفاقس بل شملت أغلب المدن الساحلية التي تحررت من سلطة الاحتلال .

يقول عبد الله التجاني :

وكان انتقاض صفاقس على النصاري سببا في انتقاض سائر بلاد السواحل وزوالها من أيديهم . وأقام عمر (الفرياني) يدبّر أمر البلد الى أن نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي الى افريقية بحصار المهدية ، فوصل اليها عمر المذكور مع جماعة من أشياخ صفاقس فأذعنوا له بالطاعة ، وعين لهم عبد المؤمن حافظا على الموحدين ، وأمر عمر بالرجوع الى بلده وأن تكون الأشغال المخزنية تتصرف على يده . فأقام على ذلك الى أن توفّي (1) » .

ولكن مجد هذه الأسرة لم يطل به الأمد فبعد وفاة البطل عمر الفرياني تولىّ بعده ابنه عبد الرحمان الذي كان في عهده استيلاء الميورقي على صفاقس ، فطلب عبد الرحمان من الميورقي أن سرّحه الى الحج فارتحل بأهله ولم يعد ، وبقي البعض من ولده بصفاقس الى مطلع القرن الثامن الهجري كما صرّح بذلك عبد الله التجاني ، وكان البعض من أفراد هذه العائلة هاجروا الى المشرق والبعض الآخر الى الاندلس

---

1) رحلة التجاني (76) .

والمغرب ، إذ نجد منهم مثلا عبد الرحمان بن علي الفرّياني في القرن السابع للهجرة في المغرب الاقصى . وكان مشهورا بالهجاء . وقد نقل عبد الله التجاني من شعره قولَه في احد سلاطين مرّاكش ، وكان أسود اللون :

أسفًا على مراكش وَوُلاتها
لم يبق للايام فيها رونقُ
كانوا حمَاما فالليالي لم تدعْ
في دارهم إلا غرابا ينعق

وقوله أيضا :

كانَ الخلائقُ قبلُ في مرّاكشٍ
صورا من الكافور يعجب خالصُه
فأتى عليٌّ بعدَهم خَتْماً لهم
كالمسك لونا ليس فيه خصائصُه (2)

---

2) الرحلة (84).

الخيّاط الدّعيّ

لم تكد الدولة الحفصية تتنفس الصعداء بعد ارتحال الصليبية الثامنة عنها حتى أصيبت بهزة داخلية كادت تقضي عليها نهائيا . كانت تلك الهزة هي ثورة الدعي أحمد المسيلي . واذا كانت الحملة الصليبية الثامنة هزة خارجية قد يبعد تسليط مسؤولية وقوعها على السلطنة الحفصية فان ثورة أحمد المسيلي كانت على العكس من ذلك إذ يمكن إرجاع أسبابها الى وضعية الحكم في البلاط الحفصي وسياسة العائلة الحاكمة نفسها . ويمكن إرجاع الممهدات لتلك الثورة الى ما يلي :

1) بعد أربع سنوات من حكم المستنصر انفصل عنه أخوه إبراهيم بن يحيى وشقّ في وجهه عصا الطاعة « لما كان يعانيه من أخلاق أخيه المستنصر ، حتى خاف على نفسه منه ، ففرّ منه وثار . وأطاعته بسكرة وقابس ، ثم اتجه الى المغرب الاقصى وجاز الى الأندلس فقصد بلاط أبي عبد الله بن الأحمر في غرناطة ،

حيث أكرم وفادته رعايةً لأبيه أبي زكرياء يحيى ومحاولة انتصاره للمسلمين بالأندلس . وقد ظل ابراهيم بن يحيى في الاندلس عدة سنوات » شهد فيها الوقائع ضد حركة الاسترجاع الاسبانية وأبلى فيها البلاء الحسن حتى اشتهر اسمه ، وعلا صيته (1) .

وخاف أخوه المستنصر من هذه الحظوة التي كان يلقاها عند ابن الاحمر بغرناطة فكان يوجه الهدايا الضخمة لابن الأحمر ويبعث له بالأموال الكثيرة ليمسك أخاه عنده . كما كان يرسل الوفود من كبار الموحّدين وأعيان « الطلبة » في السفارة عنه لابن الأحمر . للتجسس على أخيه والتطلع على أحواله وتحركاته مخافة أن يباغته بالقدوم ويفتك منه السلطنة .

اما ابراهيم فقد ظلّ هنالك يترقب الوقت المناسب والفرصة السانحة .

2) عندما توفيّ المستنصر بالله الحفصي سنة 675 هـ تولىّ الخلافة من بعده ابنه يحيى الواثق وهو في الثامنة والعشرين من العمر . وتظاهر الواثق ـ أول الأمر ـ بالاصلاح فسرّح المسجونين ، وأمر برفع المظالم ، وأحرق أزمّة الضرائب ، وشرع في إصلاح المساجد وأحسن الى الجند (2) ولكنه لم يكن رجل

1) الفارسية (118) .

2) الفارسية (136) المؤنس (138)

حكم فأسلم الأمور الى كاتب علامته يحيى بن الغافقي حتى أصبح الواثق « ... في يديه كالمحجور في يد الوصّي . ولم يبلغ في هذه الدولة الحفصية أحد ما بلغ اليه هذا الرجل من التحكّم والاستيلاء ، وانفرد بتدبير المملكة . وكان كما يقول ابن قنفذ عجولا غير متثبت في آرائه(3) وكان ابن الغافقي هذا كثير الاعجاب بنفسه ، مفرط التعسف ، مشتغلا بأمور الضخامة والبناء وأنواع الملابس واقتناء الذخائر (4) ولا يحسن شيئا من سياسة الملك والرعية (5) وانفرد ابن الغافقي بالأمور وأذلّ الموحّدين بوقوفهم على بابه ، والتوسل إليه بحجّابه (6) .

وقرّب نهايته ونهاية مولاه الواثق عندما ولىّ أخاه إدريس على بجاية فاقتنى بها مالا ، وأذل رجالا ، وأساء العشرة مع أهلها حتى أثار عليه الناس فقتلوه . وبعث أهل بجاية الى الأمير أبي إسحاق إبراهيم بالبيعة وطلبوا منه القدوم والنصرة . وكان أبو إسحاق إبراهيم يترقّب تلك الفرصة فأقبل مسرعا على بجاية واستولى عليها سنة 677 هـ ثم تقدم الى تونس . وعرف الواثق أن لا قدرة له على مجابهة عمّه إبراهيم فتنازل لعمّه بعد أن ظل على العرش الحفصي سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما

---

3) الفارسية (135)

4) المصدر نفسه

5) المؤنس (138)

6) الفارسية (134) . .

« وانتقل الواثق المخلوع من القصبة الى دار الغوري بالكتبيين . ولكن الوشاة أعلموا أبا اسحاق ابراهيم أن الواثق يعمل ضدّه ، وأنه بعث الى قائد النصارى وتحدث معه ليثور على عمّه بليل . فرفع الواثق للقصبة هو وبنوه . وكانوا ثلاثة : الفضل والطاهر والطيب وثقفوا بالقصبة وذبحوا جميعا في صفر سنة 679 (7) » .

أما الملك غير المتوج يحيى الغافقي فقد قبض عليه يوم تنازل مولاه الواثق عن السلطنة وأودع السجن حتى توفيّ من شدة التنكيل والتعذيب .

3) ولكن هل سلم وضع البلاد من الفوضى عندما تولىّ امرها أبو اسحاق ابراهيم ؟ لقد كانت تعلّة أبي إسحاق ابـراهيم في استيلائه على الحكمْ ما ظهر من فساد الادارة خاصةً من طرف يحيى الغافقي . ولكن إبراهيم نفسه لم يسلم من تلك العاهة . ويصفه ابنْ القنفذ في كتاب الفارسية بقوله : وكان الأمير أبو اسحاق فيه غلظة ، وشجاعة ، وخفة ، وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه . وكان لا ينظر في عواقب الأمور . وكان ولده الأمير أبو زكرياء يردّ عليه أكثر أوامره بالتلطّف واللّيان ، ويرجع اليه أبو اسحاق في جلّ مسائله ... وزاد في العوائـد ليجـد الراحـة في لذاته ، بعد تقدم غزواته ، وقلّت المجابي في أيامه ، وكثر الاخراج

---

7) الزركشي (43)

والانفاق » (8) واذا استطاع أبو اسحاق ابراهيم أن يخمد بعض الثورات فان سوء التدبير جعل النـاس يتذمـرون من وجـوده ويتطلّعون الى التخلص منه أو كما قال ابن القنفذ : « الا أن الناس على تزلزلٍ لأجل سطوته ، وانقطاعه الى شهوته » (9) .

ولهذا فما إن اندلعت ثورة أحمد المسيلي سنة 681 حتى كانت اللّهَبَ الذي عمّ البلاد فالتفّ حوله النّاس مؤيدين وراغبين في الانضمام إليه والقتال معه .

واحمد المسيلي الذي عرف بلقب الدعي : يُذْكَرُ في ترجمته أنه أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي . ولد بالمسيلة سنة 642 هـ . ونشأ بمدينة بجاية ، وكان خامل النشأة كثير التطور (10) . وكان محترفا حرفة الخياطة ، ويخالط السحرة والمشعوذين . وكان يزعم أنه يعرف صناعة الـكيمياء وتحـويل المعـادن الى ذهـب (11) .

وبالاضافة الى التذمّر الذي كان يسود الناس من سوء سيرة أبي إسحاق الحفصي وتدبيره فقد ادّعى أحمد المسيلي أنه من بني حفص ، وأنه الفضل بن الواثق فرّ من السجن وثار ليأخذ بثار

8) الفارسية (139)

9) الفارسية (140)

10) الفارسية (144)

11) المؤنس 139 .

أبيه وإخوته . وبالرغم من أن الفضل بن الواثق قُتِل مع أبيه في السجن فقد انطلت هذه الحيلة على الجماهير خاصة الأعراب وسكان البوادي بعد أن تواطأ معه أحد عبيد الفضل بن الواثق المسمى « نصير » فكان يقوم له بالدعاية ويزعم أنه الفضل ابن الواثق .

وقد استطاع الدعي أن يستوليَ على كامل سلطنة بني حفص وأن يقتل أو يسجن كافة أفراد العائلة الحفصية ، ولم يُفلت منه إلا أبو حفص عمر بن أبي زكرياء فقد تمكن من الفرار الى تلمسان . وهو الذي سيكون له شأن فيما يستقبل من تاريخ بني حفص.

لم يكن للدعي أحمد المسيلي ما يؤهله عن جدارة لممارسة الحكم . ولم تكن له العصبية التي كانت ـ كما يقول ابن خلدون ـ عماد الملك ، بالاضافة الى ما كان عليه هو من تهتك واستهتار . فقد كان ـ كما يقول ابن القنفذ ـ يتظاهر بمعرفة رجال من الصالحين كالمرجاني والزبيدي والخلاسي وغيرهم ، وهو على خلاف ما أظهر من شرب الخمر وغيره .

ومن تعدّيه وجرأته أنه كان يقطع المنكَر ويرتكبه ، ويأمر بالمعروف ويجتنبه ، وكان قتّالا سفّاكا للدماء ، ظالما خسيسا ، بخيلا فاجرا ، كذابا ، مُخْلِفًا للوعد ، بعيدا من خصال أبناء

الملوك . ولم تعلم له منقبة سوى أنه رفع النزول (الضرائب) عن أهل تونس ، وكانوا يلقون منه أمرا عظيما ، وبنى جامعا للخطبة (12) .

ومما لاشك فيه أن كلام ابن القنفذ لا يخلو من مبالغة ، وأنه خاضع للهوى السياسي . ولكنه يحمل ـ بلا شك ـ الكثيرَ من الحقائق عن هذا الثائر الذي لم يستمر في حكمه سوى سنة ونصف إلا ثلاثة أيام (13) .

فلو أنه سلك سبيل الرشاد والاصلاح بعد الظلم الذي لقيه الناس من أبي إسحاق ابراهيم لوجد من الأنصار والقوة ما يمنع انهزامه بتلك السرعة . فما إن عرف أبو حفص بن أبي زكرياء سياسة هذا الثائر ونفور الناس والجند منه حتى أخذ يجمع الجيوش ، ويؤلب الأعراب وسكان المدن ضدّ « الدعي » . وما هي الا بعض جولات حتى وصل تونس وحاصرها فانهزم الدعي وفرّ عنه أنصاره وأتباعه « فلما أيقن أنه هالك لا محالة فرّ بنفسه رغبة في الحياة ، واختفى في دار بمقربة من الصفارين (سوق النحاس) عند رجل فَرَّانٍ أندلسي يقال له أبو القاسم القرموني . وأقام الدّعيّ في تلك الدار سبعة أيام الى أن دلّت عليه امرأة

12) الفارسية (144)

13) المؤنس (140)

فأخرج منها وحمل الى أبي حفص عمر فعقد له مجلسا أقرّ فيه بأنه ليس ابن يحيى الواثق . ثم أمر بقتله وطيف بشلوه على حمار أشهب . ثم ألقي بجثته في السبخة خارج باب البحر » (14) .

وهكذا انتهت هذه الانتفاضة التي كادت تقضي على دولة بني حفص . وهي ثورة تذكرنا بما قام به أبو يزيد صاحب الحمار ضد الدولة العبيدية . لكنها ثورات لم تقم على أساس ، ولم تنبع عن مبادىء ومثل . جاءت إثر فساد في الحكم . لكنها كانت تحمل نفس الفساد فلم تعمّر ولم يكتب لها النجاح .

---

14) الزركشي (50)

عَمّارُ المَعْروفي

كان المستنصر بالله الحفصي خامس ملوك بني حفص يعتبر واسطة عقد هذه الدولة ومن أشهر ملوكها . لما قام به من أعمال ولما جدّ في عهده من أحداث لها صلة بالسياسة الاسلامية والسياسة العالمية .

وكان من أعظم انجازاته إصلاح الحنايا الرومانية وترميمها فأنشأ منها فرعا جديدا أوصل به الماء الى منتزهه بأبي فهر والى جامع الزيتونة .

وقد مدحه الكثير من الشعراء منهم حازم القرطاجني صاحب المقصورة المشهورة التي يشير فيها الى جلب ماء زغوان بقوله :

أجريت من عينٍ ومن عينٍ بها
عَيْنَيْــن قد عمّاً البرايا والبَرى
وسُقْــتَ مــن مُلاوَةٍ ما ساقَ في
دهــرٍ طويــلٍ كلّ جبارٍ عتا

وكفّـــرت طاعتُـــه لمؤمـــن

طاعتَـــه لكافرٍ فيمـــا مضـى

وانساب في قصر أبي فهر الذي

بكلّ قصـرٍ في الجهال قد زرى

قصـــرٍ تراءى بين بحر سَلْسَلٍ

وَسَجْسَجٍ مـــن الظِلال قد ضفا

بحيـــرة أعلى الالـــهُ قدَرهـــا

قد عذب المـــاء بهـــا وقدرّها (1)

وقال شاعر آخرُ في نفس المعنى :

أجـــاب امرَك معنى كلّ مملكةٍ

من عهد من جاب فيه الصخرَ بالوادي

وكـــان حربًـــا يناصيهـــم قيادتَه

قد عـــاد سِلْماً كما قد كان في عاد

وجريـــةُ المـــاءِ تُبدي صوغَ سلسلة

تنهـي اليـــك بهـــا إذعـــانَ منقـاد

لتَغْلِبَنَّ أميـــرَ المؤمنين ـ بهـــا

فـــراتَ فـــارس أو غوزًا ببغداد (2)

---

1) الفارسية (128)

2) الفارسية (128)

وقال في ذلك شاعر ثالث :

فقال : أبو فهرٍ ولم يدرِ قدرَه
وإن جاءَ وفد الماء قال : أبو نهر

وعِلـمُ أميـر المؤمنين وجُـودُه
بِـه كلٌ يـوم فهو حقًا أبو نهر

كان ذلك سنة خمس وستين وستمائة هجرية ، وبعدها بسنة توجه المستنصر بالله الى المغرب الأوسط لقمع ثورة بني رياح فانتصر عليها وهنأه الشعراء بذلك الانتصار فقال فيه أبو الحسين حازم :

وبَلَغْتَ في الأعـداء كلٌ مُرادِ
وغـدا لـك التأييدُ ذا إسعاد

وغدا الأعادي من رياحٍ عندما
هبّـت بنصركمُ الريـاحُ كعـاد

أضحى « سباعٌ » للسباعِ فريسـةً
وسطـا بشبـلٍ غالـبُ الآسـادِ

وكبَـتْ بحـذًادٍ وسائـرِ صحبه
دُهْـمٌ أتَتْ من مربط الحدّاد

طوّقتهم بضنـاك اذ لـم يشكروا
مـا طوّقوا من أنعم وأيادي (3)

أما أبو تميم الحميزي فيقول عن ذلك الانتصار :

---

3) المصدر السابق (130)

00 وهـــامُ جناةٍ أبرزوها على القنا

فَتِقْ بنَجَــاةٍ عندهـــا ونجــاحِ

فيا حُسْنَ ما قرّت به أعينُ الورى

رؤوس ريـــاح في رؤوس رمـــاح

فهذي دمـــاءُ المارقين مباحــةٌ

وهـــذا دَمُ الاســـلام غيـــرُ مباح

بمستنصر يرمي العِدَى بكتائب

تعـــمّ نواحي أرضهـــم بنُواح (4)

ذلك هو المستنصر الحفصي أمام الأحداث الداخلية التي قامت ضده تغلّب عليها ومُدِح من أجلها .

أما الأحداث الخارجية فكان أبرزها أمرين : الأول حدث سنة سبع وخمسين وستمائة بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة 656 هـ فقد جاءته من مكة المكرمة البيعة بالخلافة الاسلامية ، وكانت من انشاء عبد الحق بن سبعين ووصل بهـا الى تونس المحدّث الراوية أبو محمد بن برطلة فابتهج لذلك المستنصر بالله الحفصي وتلقب بأمير المؤمنين وأقام الاحتفالات ابتهاجا ومدحه الشعراء بذلك التقليد حتى قال أحدهم :

أهنـــأ أميـــر المؤمنين ببيعةٍ

---

4) المصدر السابق

وَافَتْــك بالاقبــال والاسعـــــاد

فلقــد حباك بملكه ربُّ الورى

فأتـــى يبشــر بافتتاح بـــلاد

وإذا أتـــت أمّ القرى منقادةً

فمـــن المبرّة طاعـــة الأولاد (5)

ولكن هل كانت هذه البيعة دليل قطع على أن الخليفة الحفصي الجديد أصبح أمل العالم الاسلامي في ردّ العدوان ودفع الكيد بعد أن فجعوا في خيال هزيل كانوا يتعلقون به ؟ لكننا اذا عرفنا أن ابن سبعين من مهاجري الأندلس الى المشرق ، وأن أهل الاندلس كانوا يرون في تونس الحفصية الملجأ لهم من كيد حركة الاسترجاع الاسبانية حتى قصدها الكثير منهم واستقروا فيها أو أقاموا بها أياما ، اذا عرفنا ذلك أدركنا العوامل الذاتية التـي دفعت بابن سبعين وغيره الى اعتبار ملك تونس الحفصي هو أولى بلقب الخلافة وتجديدها والذبّ عن حماها .

وبعد عشر سنوات من ذلك الحادث يأتي الأمر العالمي الثاني ، وهو هجوم الصليبيين على تونس بقيادة لويز التاسع . فماذا كان موقف أمير المؤمنـين الحفصي من هذه الغـزوة ؟ وهـل كان في مستوى الأمل الذي بسببه جاءته البيعة من مكة ؟

---

5) تاريخ الدولتين للزركشي (37)

ان الواقع التاريخي يأتي بعكس ذلك . وأن الاستعداد الحربي لهذا الخليفة لم يكن بقادر على ردّ العدوان حتى إنه فكّر في الهجرة عن تونس ، بل استعدّ للرحيل الى مدينة قسنطينة وأراد نقل ذخائره وأهله اليها ، واختزن بها أربعين ألف قفيز من القمح وأمثالها من الشعير وشرع في إصلاح اسوارها وأمر بالحرث الكثير في جميع البلاد (6) . ولم يخرج المستنصر لقتال الغزاة وهم محتلون لقرطاجنة على أميال قليلة منه مكتفيا بارسال الجيوش اليهم (7) . ولولا تفشي الوباء في الجيوش المتحاربة وموت لويز التاسع زعيم المتحالفين الغزاة لنفذ المستنصر خطة الفرار تاركا عاصمته لاحتلال الغزاة . ورغم ذلك فانهم لم يرحلوا من تونس الا بعد صلح دفع لهم بموجبه غرامة مالية جسيمة أوصل بعضهم الى 1110 قنطار ذهب .

لقد ذكروا عن الحادثة أن عدد المقاتلين المسلمين كان 40 ألف رجل وقد جرت بينهم وبين الغزاة عدة معارك في السهول الواقعة بين هضبة قرطاجة وبحيرة تونس ، ولكن هذه المعارك لم تكن تمثل قوة البلاد والجيش الرسمي لها بل كانت أساسا تمثل القوى الشعبية من المتطوّعة للجهاد الذين جاؤوا من جهات مختلفة

---

6) الفارسية (132)

7) المؤنس (136)

وخاصة القيروان . وكان زعيم المقاومة الشعبية أبـو علي عمار المعروفي أحد صلحاء القيروان وزهادها . فلما ان سمع بما حلّ بقرطاجة حتى أخذ يحرّض النـاس على الجهـاد في القـيروان والأرياف . وما وصل تونس حتى كان معـه عشرات الآلاف واندفعوا الى ناحية أريانة فنصبوا خيامهم فكانوا يمشون منها كلّ يوم للجهاد إلى أن تمّ الصلح بين الغزاة والمستنصر ، واذا لم يكتب لعمار المعروفي الموت في ميدان المعركة فان مرض الوبـاء أصابه ومات بعد أيام من وقف القتال ودفن بأريانة حيث يوجد ضريحه الآن معروفا باسم سيدي عمار .

وتناسى الناس بطولة زعيم المقاومة الشعبية . وظلّ في أذهانهم ذلك الولي الصالح صاحب الكرامات والخوارق ، ومحل البركة والتوسل ، بينما الجانب الايجابي منـه طواه الزمـن ونسـج عليه عنكبوت التخلف شبكة الوهن والخنوع والاستسلام ، وظل مدح المستنصر مدوّنا في كتب التاريخ لا يشير الى هزيمة ولا يحـدد غرامة وتلك غريبة من غرائب التاريخ ....

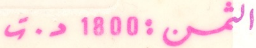
الفهرس

تـم طبـع هـذا الكتـاب
بدار بوسلامة للطباعة والنشر
15 ، نهج الامين العباسي ـ تونس
تحت عـــ 1 ـــدد
الايداع القانوني الثلاثة اشهر الاولى
سنــة 1981

ولم تكن هذه الصفحات بعيدةً عن هذا الملحظ فهي أقرب الى الجانب غير الرسمي من الأحداث التي تتصل بأولائك المسؤولين بالرغم من ورودهم في الذكر وحتى صلتهم بالحدث . وفي بعض هذه الصفحات ما يلقي الضوء على واقع قد لا يعيره « التأريخ الرسمي » اهتماما وقد يهمله لأنه يمس بعرض المسؤول او سيرته ، او يشدد على تبعة ما كان مسؤولا عنه .

ولعل النسج على منوال هذه المحاولة يساعد على توفير جوانب من « تأريخ » لا يتصل بمحور الحاكم بقدر ما ينال أوضاع المحكومين . وتلك حاجة مفتقر إليها كثيرا نظرًا لغياب الكثير من مصادر التوثيق أو انعدامها . وهذا ما نلمسه في أغلب عصور هذا الوطن اذ تظافر على ذلك عاملان واضحان على الأقل : عامل قلّة المدوّنات ، وعامل الكوارث والجوائح التي انتابت هذا الوطن فأتت على أغلب تراثه الثقافي .





الثمن : 1800 د . ت